الدكتور عبد الستار الراوي

أيامُ أبــي

(سيرة .. وذكريات)



إشارة

يوشك العمر أن ينطفئ الآن أو بعد حين. في لحظة قائمة أو آتية.

فالغُربة الموجعة تأكل الذاكرة والفؤاد. وقبيل أن تحلّ تلك اللحظة التي لا ريب في قدومها عاجلاً أم آجلاً.

أقدم هذا الكتاب وفاءً واعتزازاً لوالديَّ:

عز الدين محمود العبد الراوي...

ومليكة حمادي صالح الراوي...

وإلى ذكرى الشهيد سعد عز الدين الراوي

وإلى شقيقاتي الست المازة وأخواتها...

وأخوتي محمود عماد، عبد الكريم، يوسف...

وإلى نجلاء، زينب، عزاوي

وإلى بغداد عاصمة الحكمة والشجاعة

وإلى راوة مدينة البسالة والسخاء والشهداء...

مع محبتي الدائمة...

عبد الستار عز الدين الراوي

المحروسة مصر

القاهرة الجديدة

شتاء ٢٠٠٥

إضاءة

قيل في أصل اسم (راوة) روايتان:

الأولى: جاء اسمها من المكان ذاته والمشهور بوفرة المياه وبالأرواء المستديم لأراضيها التي تسقى في الفرات. وهو المكان الذي قطنه الجد الأكبر السيد يحي بن حسون، وقد أضفيَ على لقب (الراوي) عليه وعلى أولاده وأحفاده من بعده.

الثانية: يذهب أصحابها إلى القول بأن الاسم أطلق على المكان الذي أقام فيه السيد يحي بن حسون وعرف به، بوصفه (راوية) للحديث النبوي الشريف.

وقد عرف الراويون على مرّ الأزمان وتعاقب الأجيال بأنهم أهل ورع وتقوى وبرز منهم كثير من الفقهاء والعلماء.

وراوة اليوم قضاء تابع لمحافظة الأنبار، يعمل أهلها في الزراعة والتجارة، ومنهم موظفون في دوائر رسمية، وفيها مدارس للبنات والبنين بمراحلها الثلاث الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وتتمتع بخدمات الماء والكهرباء منذ عام ١٩٦٣، وقبل أن تطمر راوة القديمة الأولى، مياه سدّ حديثة شيدت الدولة مدينة حديثة عند منطقة الطار،[1] تدعى اليوم (راوة الجديدة)، تتوفر فيها خطوط الهاتف، وسوق عصرية، وروضة للأطفال إلى جانب خدمات أخرى.

وقد شغل أبناء راوة منذ تأسيس الحكم الوطني في العراق عام ١٩٢١ العديد من مواقع المسئولية كما ظهر منهم العلماء والمفكرون والأدباء والوزراء والسفراء والقادة العسكريون.

---

[1] الطار: هضبة تقع شرقيّ مدينة راوة.

أما صورة راوة في مطلع القرن العشرين التي ولد فيها عز الدين محمود الراوي وعاش في رحابها طفولته وصباه، فكانت قرية صغيرة، لا يتجاوز طولها على (١٥٠٠) ألف وخمسمائة متراً، ولا يزيد عرضها على (٢٠٠) مائتي متر، أيّ أن مساحتها الكلية في ذلك الوقت لم تكن تساوي ثلاثين ألف متر مربع.

تطل القرية على الشاطئ الأيسر للفرات، يقطعها طولاً طريقان متوازيان، أحدهما محاذ للجبل[١] والآخر محاذ للنهر،[٢] وهي تقع عند سفح جبل لا يزيد ارتفاعه على (٢٥) خمسة وعشرين متراً، وفي آخره تقوم قلعة (مدحت باشا)، [٣] والجبل يظهر على شكل شبه جزيرة يحيط بها الماء من جهاته الثلاث.

وتؤلف راوة مشهداً خلاباً، فهي تمتد إلى البساتين، وتتصل بها شرقاً وغرباً، تقابلها جزر وسط الفرات عامرة بالثمار، ومما يزيد من جمالها أصوات النواعير السبعة[٤] على شواطئها، وأنّى تولي وجهك، وفي أيٍّ من الجهات الأربع، فإن هواءها يأتيك نقياً لطيفاً؛ لأنه يمر بنهر الفرات المتعرج الذي تكتنفه التلال من جانبيه، وتحاذيه سلسلة متصلة من المزارع والبساتين.

والراويون بعشائرهم الأربع ينحدرون من جدّ واحد هو السيد يحي بن السيد حسون، الذي أعقب ولدين هما: أحمد وحسان، وولد لأحمد: عبد الله، الذي أعقب ثلاثة أولاد هم: سرحان، حسين، عبيد.

ومن الأشقاء الثلاثة تكونت عشائر: السراحنة، السواهيك، البوعبيد.

---

[١] درب (المسطاح).

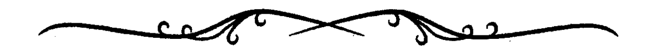
[٢] درب (الجواني).

[٣] قلعة عسكرية شيدها العثمانيون في القرن التاسع عشر.

[٤] النواعير: مفردها (ناعور) وسيلة إروائية. وهي موزعة على طول القرية وامتدادها.

أما حسان: فهو جد الشيخ رجب الكبير الذي انحدرت منه العشيرة الرابعة (الشيخ رجب)، وأهل راوة طبقاً للنسب الموثق الثابت هم: حسينيون، نسبة إلى الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام).

أما الحياة في راوة في ذلك الوقت، فكانت بسيطة، فطرية، وهي أقرب إلى البداوة؛ لأن القرية متصلة بالجزيرة وبقبائلها المتنقلة مثل (شمر) في الجزيرة و(عنزة) في الشامية، والراويون على صلة حميمة بالجانبين، وفي أوقات الراحة يجتمع الراويون في الدواوين. وكان في القرية أكثر من (٤٠) أربعين ديواناً مفتوحة على الدوام أمام الضيوف وعابري السبيل.



مدخل

من هو عز الدين محمود؟

هو السيد عز الدين محمود عبد الدخيل* إسماعيل عبد الله الورور من (البو عبيد)، إحدى عشائر راوة الأربع، ينحدر من أسرة رقيقة الحال، وقد ولد سنة ١٩١٧ في درب المحسنة،[١] وعاش طفولته وصباه في بيت دخيل، وفي كنف مطني العساف بعد أن اقترن بأمه وردة طه الحمادي[٢] عقب وفاة

---

* أعقب السيد دخيل ثلاثة أبناء هم: حياوي، عبد، صالح. وقد تزوج حياوي من ابنة عمه نسومة الحمادي. وأنجبت له: عساف، زكري، فطيم، وضحة، خثيلة، حليمة، واقترن عساف من لطيفة ابنة عمه عبد وأنجبت له مطني وفتية وفتحية، أما الحاج مطني، فتزوج وردة طه الحمادي، وأنجبت له أمين، وبعد وفاتها، اقترن ببدوية عسكر، وأعقب منها عبد الرزاق، عبد القادر، عبد الكريم، عبد الحكيم، عبد الحليم، عبد السلام، عبد الرحيم، سامية، نظام. أما السيد زكري فتزوج بـ (زمو) من عنة، وعتشة صالح النعمان، ولم يعقب من أي منهما. أما السيد عبد الدخيل فقد تزوج من فاطمة العواد الفاعور، وأنجبت له: محمود، عبد اللطيف، لطيفة، خديجة، عائشة، وتزوج محمود من وردة طه الحمادي، وأعقب منها عز الدين، ومزعل، وزكية، أما السيد عز الدين فقد اقترن بمليكة حمادي صالح النعمان، وأعقب منها، عبد الستار، سعد، محمود، عبد الكريم، يوسف، المازة، سعدية، وداد، سهيلة، ساهرة، إقبال. أما عبد اللطيف فتزوج من جميلة رشيد المولى، واقتيد إلى (السفربر) ولم يعد من الحرب، وقد توفي أولاده من بعده، أما لطيفة فقد تزوجت ابن عمها عساف، كما أشرنا آنفاً، وتزوجت خديجة من حميد الصالح وأنجبت له: عمار، عمر، عميرة. أما عائشة فقد تزوجت من محمود العوض وأنجبت له نجيب ونجيبة، أما بالنسبة لصالح الدخيل فقد تزوج من وضحة الحديد وأنجبت له أربع بنات هن: فاطمة، عسرة، رزقية، ريمة.

(١) درب المحسنة أحد خمسة طرق يمتد من المسطاح وينتهي بالنهر.

(٢) أنجب حمادي: طه، حبيب، ولي، إبراهيم، نسومة، حبيبة. أما طه فقد تزوج من علية العران فأنجبت له: عبد الجبار، عبد الغفور، ياسين، عبد الرحمن، وردة. شنتافة، ذيبة. وتزوج عبد الجبار فتحية العساف. وأعقب منها: مهدي، هادي، صبحي، يحي، محمد، هدية، غنية، صبيحة، نجاة. أما عبد الغفور فقد تزوج من عائشة الأشعب وأعقب منها: كمال وكاملة. أما ياسين فقد اقترن بهدلة على العران. وأنجبت له: شلال وكريمة نعيمة. أما وردة فقد تزوجها محمود عبد الدخيل، وأنجبت له عز الدين وبعد وفاته اقترن بها مطني العساف، وأعقب منها أمين. أمينة، مطلوب. أما شنتافة فتزوجها عسكر سبهان السباهي، وأنجبت له: حامد، حمدية، بدوية. أما ذيبة، فقد تزوجت مصطفى الحاج محمد علي، وأنجبت له حمادي.

أبيه، وأنجب منها (أمين)، الأخ الوحيد لعز الدين.

ولأن عـز الدين ولد يتيماً، فإن وردة أصبحت تعني كل شيء في حياته، ملاذاً وأمناً، ومأوى، وكانت لابنها أماً وأباً، وظلاً وارفاً مفعماً بعاطفة أمومية فياضـة بالمحـبة والحنان، كلاهما متعلق بالآخر لا يطيق بعداً عنه، وظلاً متلازميـن معاً في الذهاب والإياب، في الغداة والعشي، فتصحبه معها غرباً إلـى البستان في الهلالية، وشرقاً إلى عانة التي كثيراً ما يستعيد أبي ذكرى تلـك الأيام، ولعل الذي كان يثير اهتمامه أكثر من أي شيء آخر، هو متعة عبور الفرات بالزورق، أو الانحدار بالشختور وهو ينساب في حوض النهر صـوب (محلة السدة)، [1] تلك البقعة الآسرة، وما يتوقع أن يجد في انتظاره هـناك، مـن ضـروب اللهو الباذخ، السباحة، والصيد، والتجوال بين آثار القلعة[2] ورسومها.

ويذكر أبي (بأن أيام عنه، من بين أجمل أيام طفولته، تلك التي أمضاها برفقة حامد وبدوية مثلما ظلت ذكرى خالته شنتافه نديّة في قلبه ووجدانه، فقد أحاطته خلال حياة أمه وعقب رحليها بالكثير من الرعاية، وأغدقت عليه حبها وحنانها).

ولابد أن أنوه هنا بموقفين يبدوان متباعدين ومنفصلين في الزمان والمكان، ولكنهما يتسقان من حيث الدلالة والمعنى، على تأكيد عمق العلاقة الروحية الوطيدة بين عز الدين وحامد العسكر.

الأول: بداية ثمانينات القرن العشرين، عندما جرى إغراق مدينتي عانة وراوة، لجعلهما جزءاً من حوض بحيرة سد حديثة، إذ طلب أبي مني ونحن

---

[1] إحدى محلات عانة تقع في الطرف الجنوبي في المدينة.

[2] إحدى المعالم الأثرية.

في طريقنا إلى بغداد، إيقاف السيارة عند شاطئ عنة[1] قرب محلة رأس الغربي، ونزل منها، وتوجه إلى حافة النهر وقف هناك كالتائه، وكأنه يبحث عن شيء ما، يطوف بعينيه الأرجاء، يتأمل مياه الفرات وهي تبتلع عانة شيئاً فشيئاً فتطوي الأمواج الهادرة البيوت والأزقة والطرقات.

لم يتمالك أبي نفسه فبكى، وعاد مهموماً وهو يغالب دموعه، وهو يردد بأسى: "باطل .. باطل".

ولعل أبي كان يومئ إلى أيام صباه الأولى، بعد أن اعتصرت قلبه فاجعة زوال عانة التي حمل ذكراها في وجدانه، متذكراً الأوقات البهيجة التي أمضاها في ربوع المدينة الغارقة برفقة حامد العسكر. [2]

أما الحدث الثاني:

الأيام الأخيرة من حياة حامد العسكر، وهو يتقلب بين أوجاع الجسد وأسقامه، بعد أن اشتدت عليه الأمراض ونالت من عافيته القروح النازفة فاقعدته عن الحركة، وبدأت تأخذه نوبات من الغيبوبة المتعاقبة، فينأى عن المكان والزمان.

يروي ولداه صالح وصباح وقائع اللحظات الأخيرة من حياة أبيهم (١٩٩٦): فيقولان: (لم نعد نسمع من حديث أبينا إلا نداء واحداً، يتردد في فضاءات الحجرة، وهو طريح الفراش، يكرره مرات ومرات، ينادي بصوت متهدج كالمستغيث: عز الدين.. عز الدين تعال. عبرني،[3] عبرني، ويعيد النداء المرجع هاتفاً: عز الدين عبرني.

---

[1] عانة واحدة من بين أعرق المدن العراقية وأقدمها تنسب إلى (أرنشير بن عانات).

[2] الشيخ حامد عسكر السباهي (١٩٠٦ – ١٩٩٦) ولد وعاش طفولته وصباه في عانة، ثم انتقل إلى سوريا وامتهن الزراعة والتجارة في القامشلي، واتخذ من قرية (   ) مقراً ومقاماً له ولأخوته فيها حتى وفاته عام ١٩٩٦، ودفن على مقربة منها.

[3] عبرني: من العبور، أي اعبر بي من هذه الضفة إلى الضفة الأخرى.

وهكذا ختم حامد سليمان العسكر رحلة التسعين عاماً وهو يرنو إلى أفق الروح القصي وراء المكان والزمان، وهو يبعث بآخر أشواقه الروحية لابن خالته ورفيق صباه عبر المسافات الشاسعة من القامشلي إلى بغداد، ولعله صدى لموقف عز الدين الذي وقف على ضفاف الفرات، وهو يشهد زوال المرابع والديار، حين رأى أيام طفولته في عانة، تطويها مياه السد وتطيح بها إلى الأبد.

* * *

ولج عز الدين كما هو حال أبناء جيله في ذلك الوقت باب (الملا)، أمضى في أجوائها العبقة سنوات طفولته الأولى، دارساً على (فلفل عبد اللطيف) فظفر بعد مضي عام كامل بالختمة سماعاً، إذ استطاع أن يستظهر القرآن الكريم ويتلوه على صدره غيباً، حافظاً لسوره وآياته، دون أن يتعلم أصول القراءة أو يلم بحرف من حروف الأبجدية.

ويروي أبي عن تجربته الأولى: (... أشبعني ملا فلفل ضرباً مبرحاً، فقد كان قاسياً غليظ القلب، يتفنن في أساليب العقاب، بسبب أو بدون سبب)؟!

وانتقل الصبي إلى ملا آخر هو (حنشول عبد العزيز) يصفه أبي: (كان الملا حنشول ضعيفاً في إدارته متواضعاً في علمه).

لذلك لم يحظ عز الدين بفرصة تعلم القراءة رغم ولعه الشديد بالمصحف الشريف وتعلقه به وإقباله عليه، فولّد في نفسه عزوفاً عن المتابعة، فانقطع عن مواصلة الدوام لدى (الملا) بعد أن اقتصر تحصيله على مجرد الحفظ والاستظهار من غير تدبر للمعنى أو معرفة بالحروف.

وبعد أنْ أدرك بأن رحلته في الملا انتهت إلى طريق موصد، إذ لم ينل منها ما كان يرجوه من التعلم، فقرر أن يعتمد لنفسه أسلوباً خاصاً به، وهو أن يبدأ تجربة التعليم الذاتي التي استغرقت سنوات عديدة من حياته، وهكذا

علم نفسه الحروف وإنشاء العبارة.. وتواصلت قراءاته، فأعاد حفظ القرآن، وحاول تدبر معانيه، والوقوف على مقاصده ومراميه، وتوالت قراءاته حتى بلغت مئات الختمات، وظل كتاب الله زاده ومعاده، رجاءه، ودعاءه.

يقرؤه فجراً، وفي الحل والترحال، قائم الليل لا يشغله عن الذكر الحكيم مال أو بنون، عابداً متهجداً، تغمر روحه أنوار الفرقان.

يهيم وجداً بالصوت الرخيم، وتهز وجدانه نغمات الناي، وتبكيه العتابة، وتشجيه أنات الناعور.

علم بنيه توقير الجار والترحاب بالضيف وإغاثة الملهوف، واعتبر ذلك فروضاً واجبة التنفيذ والاتباع.

وعوّد أولاده وأهل بيته أن يأكلوا ما يبقيه الضيف. وقد يقف بباب الدار ينتظر الذي يأتي، علّ غريباً يجيء أو ابن سبيل يمر ليشاركه الطعام.

ومن كريم طباعه: الشفقة والحياء وإكرام الغريب، والصفح عن الإساءة، وحفظ العهد، والوفاء للأصدقاء، وصلة الرحم بالأهل، والصبر الجميل حيال المصائب والأرزاء، ويوم اختطف الموت ولده سعد شهيداً في فلسطين، احتضن القرآن وهتف بأعلى صوته: (الصبر.. الصبر يا إلهي).

ويعد الأمانة على رأس الفضائل، ويحمد الله أنه لم يفرط بهذه الفضيلة في يوم من الأيام، فقد حفظ وحافظ على الأموال التي كانت بعهدته طوال مدة عمله التي تجاوزت الأربعين عاماً.

وقد حدثني ليلة ٢٠٠٤/٩/١٤ أثناء زيارته لسوريا بقوله:

(اعلم يـ ولدي إن أباك لم يقرب وطوال حياته مالاً حراماً، ولا أطعمك إلا حلالاً، ولم افرط يوماً بأمانة، ولا خنت عهداً).

حرص أن يبسط أمام أولاده وأحفاده تجربته في السوق كثيراً ما كان يحدثنا عن المشاق التي عانى منها، والصعاب التي كانت تواجهه أثناء رحلته

الطويلة في الحياة، وهو في كل الأحوال يؤثر في علاقته بأبنائه الكلمة الطيبة، والحكمة البالغة فيدعوهم إلى تدبر حقائق الدنيا، وأن يتحملوا بأنفسهم مسئولية شق الطريق والمضي في عوالمه، إلا أنه لا يتخلى عن الدعاء والرجاء من أجلهم، ويحاول ن يؤصل في نفوسهم معان أخرى لقيمة العمل، الأمانة، المسئولية، العزم، قبول المشاق، والحرية على الاختيار، فيدع إرادتهم تنمو مع الفصول.

وإذا نسي أو تناسى أحد منا أو أخطأ أو حاد عن الطريق، فإنه يقوّم عثراته بالعتاب البليغ، بل وأحياناً يكتفي بـ (نظرة) واحدة هي عند بنيه لها معنى واحد: التقريع الصامت الذي هو أشد إيلاماً من السوط.

ووصيته الدائمة إلى بنيه وأحفاده: (الحياء رأس العفة والأمانة، والصدق والاستقامة، وأن ترضى باليسير فلا تطمع في مال أو جاه، وديمومة وصل الأرحام، وتفقد الأهل والأصدقاء، ولا تعمد إلى تكرار الأخطاء، بل لابد أن تجري مراجعة لنفسك على الدوام).

ولا يزال عز الدين محمود حتى اليوم بعد أن تجاوز أصغر أولاده الأربعين عاماً من عمره، لا يهجع في الليل ولا يأتيه النوم ما لم يطمئن على عودة أولاده إلى البيت، وقد يفترش عتبة الدار وهو يرقب مجيء محمود أو كريم أو يوسف.

ولعل قربه من أم أولاده مليكة حمادي صالح النعمان، أضفى على حياته العائلية دفئاً إنسانياً بالغ الغنى، يعد ميراثاً ندياً للأولاد والأحفاد، فلم يكفّ طوال مراحل حياته عن مرحه ومداعباته مما أشاع جواً أسرياً بهيجاً.

وقد أثمرت المودة المتبادلة بين أبي وأمي علاقة حميمة فلا يطيق أحدهما البعد عن رفيقه، ولم يختلفا يوماً أو يختصما، وكأنهما توأم روحي متماثل في السجايا والطباع، وظل التوقير والاحترام والمعروف السمات الثابتة للعلاقة الأبدية بين عز الدين ومليكة ولم يخف أيٌّ منهما محبته للآخر. أما هو فكان

يعلن مودته العميقة لسيدة الدار، ولم يتردد في ذكر مآثرها أمام الجميع، فهي تظل في وجدانه الرفيقة الوفية التي وقفت إلى جواره دائماً، وشاركته في السراء والضراء حلو الحياة ومرها، وليس عجباً بعد مضي سبعة عقود من الزمن، أن ترقى مشاعرهما إلى مقام الإرادة الواحدة.

وكل منهما ولد وعاش طفولته وصباه يتيماً، فاتصفا بحساسية بالغة الشفافية من المشاعر التي غالباً ما تملأ العيون بالدموع تعبيراً عن رقة الحاشية وشفافية السلوك وعذوبة الوجدان.

يقول عز الدين عن رفيقة عمره:

(ليس بوسع الكلمات أن تحيط بسجايا مليكة حمادي، إنها امرأة أصيلة تعد مثالاً للإيثار النبيل...)

ويقول عنها أولادها: (قد تتشابه الأمهات في كثير من النواحي والصفات، ولكن مليكة هذه الأم قد تبكي لنواح طير ومواء قطة ضلت طريقها، إذ تؤمن بيقين مؤكد بأن الكائنات كلها: الشجر، الإنسان، الحيوان، ينتمون إلى عائلة واحدة.. ومن وصاياها الرفق بالشجر والحيوان).

وتروي أمي قصصاً بليغة عن وحدة المخلوقات الكونية، فللشجر روح، وللدابة روح. وتثق بأن هذه الموجودات كما غيرها تشعر مثلنا تماماً، وأن بين يديها براهين على ذلك. فقد تابعت بنفسها دورة حياة العشب والشجر في بستان أبيها، وأن أول الأدلة حسب اعتقادها تكمن في حياة النمل والزيتون.

ولأن مليكة لم تنل فرصة التعلم،ولم تدخل مدرسة في حياتها، ولا تحسن القراءة والكتابة، فقد استظهرت السور القصار لتعينها على أداء فرض الصلاة، وتأسف لعدم وجود مدرسة في زمانها. تؤمن بأن الجنة مأوى الفقراء، وأن الأيتام هم أول الضيوف على مائدة الرحمن.

وأن النفس ليس بالمال الذي يختزن أو يدّخر، بل الثراء كل الثراء في كرامة الإنسان، والنفس الأبية، والقلب الأبيض الذي ينعم صاحبه براحة الضمير.

لا أعتقد أن أمي وطوال حياتها، قد نعمت بنوم هادئ مذ كنا أطفالاً حتى الآن، إذْ غالباً ما تهبّ من غفوتها بين آن وآن، تتفقد هذا وتضع يدها على جبين ذاك، تغطي ألمازة، وتزيد دثار وداد وتصغي إلى أنفاس سعد.

وإذا تأخر أيٌّ من بنيها عن موعده قليلاً، فإنها تلازم عتبة الدار إلى جوار أبي ترقب الطريق هلعة، تأكل قلبها الهواجس والأفكار. ولم تقلع أمي ولا أبي عن هذه العادة أو تخفف من وطأتها حتى اليوم.

وعندما نقول لها ونتوسل إليها أن تكف عن قلقها؛ لأننا كبرنا ولم نعد صغاراً.

فتجيب: (إن الأولاد مهما كبروا حتى إذا صاروا رجالاً فإنهم في رأي الأمهات لم يكبروا. فالولد يبقى في نظر أمه خارج حسابات الزمن، مهما بلغ من العمر يبقى متصلاً بالحبل السري ممدوداً إلى رحم الأم).

في طفولتنا الكرخية، كنت وأختي ألمازة نحاصرها في الليالي الشتائية ونلحّ عليها أن تروي لنا قصصاً وحكايات، فكانت أعظم المرويات في رأيها هي سيرة أبيها (حمادي صالح النعمان)، إذ تستعذب الحديث عن شخصيته بصوت شجي مفعم بحزن والتياع بالغين، وكأنه لم يغب أو يرحل أو يموت إلا في الليلة الفائتة، وليس بعد مرور كل هذه العقود الطويلة في الزمن. فتعدد مناقبه، وتطري سيرته، وتستذكر أبوته الحانية.

وظل حمادي صالح كائناً حاضراً في ذاكرتها مقيماً في وجدانها تقول عنه: (لقد كان أبي حمادي أماً وأباً، مذ ارتحلت أمي وأنا رضيعة في الأيام الأولى من عمري، وهو يرعاني ويحدب علي كما الأم الرؤوم في حبه وحنانه).

أما عن شخصية حمادي الصالح، فتقول مليكة عن أبيها: (..كان رجلاً حكيماً، شجاعاً ومهاباً، وكريماً صاحب ديوان عامر بالناس، تأتيه وجوه من عرب وبدو وحضر يطوي الصحراء فارساً، ويرود الأقاصي والشعاب، خبير ببادية الشام يعرفها شبراً شبراً.. دائم الترحال مولع بالسفر الطويل، نزل حمص وحلب وتدمر حتى عد في زمانه أحد الخبراء القلائل بأسرار البادية وأرجائها، وكثيراً ما كان يصحب ناقته إلى جهات البرية المترامية، فيمضي في رحلاته شهوراً، حتى عام في يوم عاصف من رحلة صيف مريضاً لم تمهل جسده حمّى الموت، فارتحل في اليوم التالي، وبموت أبي ناصر[١] انطفأ الموقد، وانفض الديوان فبكاه البستان والنهر والأهل ودلال القهوة).

وتقول أمي: (كنت أظن أن الموت لا يأتي أبي.. وأن غيابه لن يطول، فأجيء إلى مريم[٢] أسألها:

لِمَ لَمْ يعد أبي حتى الآن؟ فغربته طال بها الزمان!

فتجيب السيدة الأرمنية:

(الموتى لا يأتون إلينا، إذ لو عاد الميت لجنَّ الخلق؟! نحن جميعاً أنت وأنا وحمدية وأخواتك وإخوانك ولدنا لنعيش أعمارنا ثم نموت، ما من أحد يبقى) لكن مليكة ترفض هذا التفسير، تتمرد على حقيقة المصير.

وتعاود السؤال تلو السؤال: (يا مريم ما الموت؟! إن أبي كان يغيب طويلاً، ولكنه كان دائماً يعود بصحبة ناقته؟!)

---

[١] يكنى بأكبر أولاد سناً وهو ناصر، وقد أعقب أيضاً عوض، عبود، عبد، ومن البنات، مليكة، بدرية، نعيمة، خميسة، هضيمة. وقد تزوج حمادي بأربع نساء آخرهن (حمدية الحبيني).

[٢] مريم امرأة أرمنية لجأت إلى راوة مع عشرات الأسر الأرمنية، في أعقاب المذابح التي تعرضوا لها، عاشت مريم في دار جدي وأصبحت جزءاً من العائلة.

ولم تجد مريم حيال إلحاح مليكة، إلا مخرجاً واحداً، بعد أن بدأت الطفلة تحاصرها بأسئلتها اليومية، وهو أن تصحبها إلى (المقبرة) وهناك عند هضبة الموتى جوار ضريح الشيخ رجب أفاضت مريم الشرح عن الموت والموتى، وأشارت: (انظري هؤلاء الذين يجاورون أباك أنهم راقدون إلى الأبد، لن يعودوا إلى الحياة مرة أخرى).

تقول أمي:

(.. أصابتني كلمات مريم بالقنوط والأسى، لكني لم أشأ الاستسلام، فأقبلت على قبر أبي، واحتضنته، حاولت رفع الحجر عنه، ليشم الهواء فقد خشيت أن يختنق.. ودعوت أن ينهض من رقاده..).

كان يحمل إليّ الحلوى والثياب من الشام، ويعلمني الفصل بين الحلال والحرام، وهو الذي جعلني أحفظ السور القصار وبدأت أصلي إلى جواره، وكنت ألوذ به أينما كان، وكنت أظنه أمي وأبي يرتق ثيابي، ويمشط شعري، ويحملني على ظهره. ويوم عاد من رحلته الطويلة من (تدمر)، فرحت به وتعلقت بثيابه، جاء يتوكأ على عصا، ظللت إلى جواره، وهو ينظر إليّ بعينين دامعتين وهو يوصي حمدية الحبيني[1] بي خيراً.

قال الناس: مات حمادي، فحزنت راوة وندبت مآثره النائحات. لم أصدق أن بوسع ملك الموت استلاب حياة أبي فأوي إلى شجرة التين الظليلة في البستان انفرد بنفسي لأبكي، وأدعو الله أن يعيده إليّ...

هكذا تحدثت أمي مليكة عن أبيها الذي ظل إلى زمن طويل حاضراً في ذاكرتها، وكأنه لم يمت أو يطويه الردى، وهي تعد الحديث عنه وعن مآثره

---

[1] حمدية الحبيني: الزوجة الرابعة لجدي حمادي. وأنجبت منه، بدرية، عوض، عبود، عبد، عرفت بجمالها البهيّ حتى آخر أيامها بعد أن تجاوزت السبعين من عمرها، وكانت كريمة النفس سخيّة اليد والقلب واللسان، توفيت عام ١٩٨١ إثر إصابتها بجلطة دماغية فقدت معها النطق.

جزءاً من الواجب الأخلاقي الذي يقضي البر بالوالدين في الحياة والممات على حد سواء.

وتقول يلزمني العرفان أيضاً أن أقر (بأن حمدية الحبيني زوجة أبي، كانت بمثابة أمي فقد أولتني الرعاية التامة بعد رحيل أبي ولم تسمعني إلا كلاماً طيباً، وكانت طوال حياتها قريبة مني، وقد حزنت يوم وفاتها، كما لو أنها أمي التي أنجبتني، بل أقرب الناس إلى قلبي). وبنفس القدر الوافر من المحبة، استذكر مريم الأرمنية (التي عاشت في كنف العائلة، كما لو كانت واحدة منا، ولازلت أذكر وصاياها ونصائحها التي كانت تسديها إليّ، بين الحين والآخر، وقد آزرتني ووقفت إلى جواري، وخففت الكثير من أوجاع اليتيم وفقدان أبي؛ ولذلك تظل ذكراها عطرة في حياتي...).

وممن لا ننسى ذكراها هي (جميلة العمير) [1]

تقول أمي عنها (خالتي جميلة أم المكارم والشهامة، فقد ملأت نفسي بالحب، وكانت يَدها مبسوطة كل البسط، وهي تحمل إليَّ المؤن والطعام في الأيام العسيرة عندما كان عز الدين جندياً في بغداد).

وإلى جوار حمدية ومريم وجميلة، عمتها عائشة صالح النعمان. [2] التي لم تنقطع زياراتها في راوة وبغداد، وهي تتفقدها وتصلها بـ (الصوغات)، وتغدق عليها حناناً أمومياً. ويمتد خط المحبة على طوال سنوات العمر فتلقي السلام لذكرى بدوية العسكر[3] التي رافقتها منذ أيام الطفولة، وجاورتها في

---

[1] جميلة العمير زوجة فرحان العبد، أعقبت منه خمس بنات، وولداً واحداً هو (نعمة) الذي عرفته صديقاً وأخاً كبيراً. وقد أقمت في بيتهم براوة شهوراً في ربيع ١٩٥٩. عمل مدرساً في ثانوية راوة. تزوج مرتين وأعقب كثيراً في الأولاد. قضى في حادثة سيارة قرب مدينة حديثة في الثمانينات.

[2] عائشة صالح النعمان: عمة أمي، وهي الشقيقة الوحيدة لحمادي وسرحان ورؤوف.

[3] بدوية سليمان العسكر (١٩١٦ – ٢٠٠٠) ابنة خالة أبي، تزوجت وطني العساف، وأنجبت له سامية ونظام وسبعة أولاد: عبد الرزاق، عبد القادر، عبد الكريم، عبد الحكيم، عبد الحليم، عبد السلام، عبد الرحيم.

راوة، وقد عاشا زمناً في دار واحدة، وهي بمثابة الأخت الكبرى وظلت كذلك حتى رحيلها. ولا تنسى الحاجة مليكة أن تستذكر أسرتها الأولى أخوتها وأخواتها، ناصر، عوض، عبود، عبد، ونعيمة، بدرية، هضيمة، وخميسة. وأن من أعظم الأرزاء التي أصابتها، كان فقدان أخيها عبود الذي كان فراقه يوماً مشهوداً في حياتها قد يقترب الحزن على فقده من فراق ابنها وفلذة كبدها سعد.

ومن النصائح التي تسديها وتذكر بها أولادها وأحفادها. هي النصيحة الذهبية التي تقول: (إمشِ مع الذي يبكيك ولا تمش مع الذي يضحكك).

وبعد فثمة العديد من القسمات النفسية المشتركة بين عز الدين ومليكة، في مقدمتها: عذوبة الوجدان، التي تفصح عنها العاطفة، الحنان، الشفقة، الشيمة وسلسلة طويلة من القيم التي حاول كل منها إشاعتها في أوساط العائلة.. وهي بمثابة وصايا تربوية، حرص أبي وأمي على توكيدها في نفوس الأبناء والأحفاد.

ولا نهاية لما قد يقال عن التجربة الإنسانية التي تحاول الأوراق القادمة بسط تفاصيلها الكثيرة. والتي قد تتصرف من الخاص إلى العام، من عز الدين محمود ومليكة حمادي إلى العائلة، ومن العائلة إلى المجتمع، ومن المجتمع إلى الوطن كله؛ ولهذه الأسباب تتعدى (أيام أبي) السيرة الذاتية أو الهموم الشخصية، إلى مشهد إنساني يلتقي حوله الناس جميعاً، وبهذا المعيار الموضوعي، تبرز أهمية هذا النص بوصفه خطاباً اجتماعياً وتربوياً للآتين إلى الحياة، من أحفادنا.. والسلام ختام..

عبد الستار عز الدين الراوي

مدينة الرحاب – القاهرة الجديدة

٢٠٠٥/١١/١

الطفولة

(١٩١٦ — ١٩٢٦)

-١-

اقتيد أبوه محمود العبد الدخيل إلى السفربرلك[1] خريف عام ١٩١٦ ولم يعد جدي من رحلته العثمانية تلك.

وقيل: قتل في الحرب، أو ابتلعته الضواري، أو أطفأ قلبه بردُ الليل.
وحين أطل عز الدين على الدنيا عام ١٩١٧، كان صوت ناعور (شكره) [2] يملأ روحه شجناً وأنيناً.

وعلى مقربة من الفرات (بيت دخيل) الذي أمضى فيه طفولته وصباه وعندما هتف يوماً: "أين أبي؟!" أجابته أمه: "إن أباك عبر الفرات إلى حرب البيت العالي، ولم يعد منها... لعله يؤوب يوماً ما".

فولد عز الدين يتيماً لم ير وجه أبيه، وظل قلبه معلقاً بباب السماء، وهو ينتظر عودة الغائب الذي لن يأتي أبداً[3]

---

(١) ثمة جموع كثيرة من فتيان وشباب راوة من الذين اقتادتهم دولة العثمانية من بين هؤلاء عبد اللطيف شقيق محمود. أي أن بيت دخيل لوحده قدم في هذه الحرب تضحية اثنين من أبنائه.

(٢) سمي بهذا الاسم نسبة إلى المكان. وهو واحد من سبعة نواعير أخرى في راوة.

(٣) عقب مرور فترة على حملة السفر برلك العثمانية، عاد علي العبد منها، وهو يحمل الأمتعة الشخصية لكل من محمود وعبد اللطيف وهو الذي أخبر مطني العبد. بموت الشقيقين، أو بمقتلهما.

-٢-

يلوذ الصبي بحمى ابن عمه مطني العساف، الذي اقترن بأمه وردة [١] فيجيء أمين، أخاً وحيداً، فيؤنس وحدته، ينشآن معاً متحابين، لم يفترقا أو يتباعدا يوماً كلاهما يرى نفسه في الآخر، وعندما اشتد المرض بأخيه، كان عز الدين يطيل دعاءه ويبكي، وحين توقف قلبه المتعب في الليلة الأخيرة من عام ١٩٩٤، قال أبي: "... لقد ولت الدنيا، وراحت أيامها".

-٣-

في نحو الثامنة من مره يواجه الصبي تجربة الأحزان العميقة، إذ تكف فجأة أطراف أمه عن الحركة، وتلتقط أذنه لأول مرة في حياته كلمة (شلل)، تلك الكلمة التي استلبت راحته، وآنسته طفولته، فأغرقت قلبه الطري بالعذاب، ونزل الخبر الأليم كما الفاجعة على (بيت دخيل) [٢] فضجت النسوة بالنواح والعويل.

أصبحت الأم الشابة التي كان يضرب المثل ببهائها وجمالها [٣] مقعدة الدار.

يقول أبي: "هرعت خالتي شنتافة [٤] حال سماعها الخبر وجاءت هلعة

---

[١] طالبت أم محمود (فاطمة العواد) مطني (بعد رحيل ولدها) أن يقترن بوردة لرعايتها مع ابنها الصغير عز الدين، وفاء لخاله محمود الذي أشرف على تربيته من قبل.

[٢] بيت دخيل الحالي، يضم عز الدين محمود وأولاده من جهة وأولاد وأحفاد مطني العساف من جهة أخرى وهم يتوزعون بين راوة والفلوجة وبغداد. ويعتبر عبد القادر مطني ممثل بيت دخيل وشيخهم في راوة. وقد عرف بحكمته وكرمة وشجاعته، ولازال بيته في راوة يشرع أبوابه للضيوف.

[٣] تقول أمي "بأن وردة كانت بهية القسمات، فائقة الجمال، حتى أثناء مرضها، وهي تنتصب على كرسيها كما لو كانت عروساً ليلة زفافها".

[٤] يذكر أبي خالته شنتافة بكل الحب؛ لأنها أحاطت أمه برعاية بالغة، ولم تتخل عنها طوال فترة مرضها حتى رحيلها.

فأولت شقيقتها الصغرى، العناية والرعاية، كما لو كانت أماً لها، وعقب انقضاء عدة أيام، بادرت أم حامد إلى نقل شقيقتها إلى بيتها في عانة، حتى تتمكن من الإشراف عليها، والتفرغ لها.

شعر عز الدين بأن قلبه ينشطر بين مدينتين (عانة وراوة) وليس له من أنيس إلا الليل والفرات وزكريا.. [١]

-٤-

يرقب عز الدين بلهفة ضفة النهر الأخرى، يطوي أياماً وليال. يمدّ البصر والفؤاد صوب السماء مرة، ونحو الأرض البعيدة مرة أخرى، يعذبه الحنين، وتعصف بصدره الأسئلة.. ثم يفيض قلبه بالأمل والرجاء.

قد تأتي وردة الآن، وتعود إلى راوة تمشي، لكن الزمن يمضي، والأيام تتوالى مثقلة بالأحزان، يتوارى أمل العودة، والنهر كالجرح المفتوح. فيحاول عز الدين أن ينسى، أو يتناسى آلام البعد. فيشاغل زمن الدنيا، يلقي أوجاع النفس عند شاطئ (شكرة)، يلعب، يلهو، يتدحرج فوق رمال (الطينة) [٢] ويمدّ قدميه في النهر. أو يمضي للبستان. يقتطف ثمرات التين والكمثرى.

لكن الطفل يهب فزعاً في آخرة الليل يملأ عينيه الدمع.. يعدو خلف زكريا، يسأله ملتاعاً: "أو تأتي أمي يوماً؟! هل تنهض من رقدتها.. وتجئ إلينا تمشي؟!"

يتمتم زكريا: "لا تقنط يا ولدي من رحمة ربك فالله قادر أن يشفي أمك، من يدري. قد تأتي الآن، أو بعد حين، فظل الأمل يفيض في قلب عز الدين وهو يرنو إلى الضفة الشرقية للفرات.

---

(١) هو زكريا حياوي السيد دخيل وهو من عماد عز الدين. وعد مضني العساف. يصفه أبي بأنه من أولياء الله. وسيرد ذكره كثيراً على لسان أبي في صفحات الكتاب التالية..

(٢) تسمية محلية لواحدة من الجزر المائية. وتقع جزيرة (الطينة) مقابل شاطئ شكرة. وتظهر على سطح الماء في موسم انخفاض مياه الفرات، يستثمرها أهل راوة في زراعة (الخضروات) الصيفية.

لكن الصبي يضيق بمحدودية العالم، فالمكان في جهاته الأربع يبدو موصد المنافذ، وليس ثمة من أفق مفتوح أمامه إلا الفرات ووجع الأسئلة، بعد أن طوقت نفسه الحيرة ونأى عنه الطريق، فهداه قلبه أن يدخل الجامع الجواني يلتمس عند المحراب الطمأنينة والسلام، فيرفع عز الدين يديه داعياً الله أن يرفق بطفولته، فتعود إليه أمه وقد برئت من أسقامها، ما بين الحلم والدعاء، والهيبة والرجاء، يظل قلبه عائماً سابحاً في فضاءات طليقة.

يواصل الصبي الدعاء في أوقات السحر العميق، فيسبق الشمس، ويرفع يديه تحت سماء الفرات فقد سمع من عمته خديجة [1] بأن الله يحب الأطفال حباً جماً، وأنه لا يخيب دعوة الداعي منهم.

وعندما يشتد به الوجد، يرنو إلى ناعور (شكرة)، ويسرح البصر نحو الأفق البعيد، وهو يهفو بكل أحاسيسه للشاطئ الآخر، علّ وردة تؤوب من عانه وتأتي ماشية على قدميها.

قطع وأخوه أمين درب المسطاح[2] عشرات المرات، جيئة وذهاباً، ينتظر عند (المعبر) [3] يرقبان ضفة المدينة الأخرى، لم يأبه أي منهما بالريح والبرد والظلمة، لعل ضوء يشع فينبئ عن قدوم الأم.

تتوالى الأيام، وتغيب الشمس، ويرحل النهار، وتسكن الظلمة البساتين، والصّبيان يرقبان، دونما جدوى.

---

[1] خديجة محمود عبد الدخيل أم (عمر وعمار) الحميّد.

[2] المسطاح: الطريق المفتوح ويسمى أيضاً (الدرب البراني) الذي يبدأ من رصيف الحاج محيسن وينتهي بمفازة (بيت طلاع) في راوة القديمة.

[3] المعبر (نقطة العبور) من راوة إلى ضفة النهر الأخرى. بواسطة (عبارة) كبيرة تتسع لعدد كبير من الناس بالإضافة إلى نقل السيارات والماشية، والأمتعة وفي السبعينيات استبدلت العبارة بجسر خشبي متحرك، وبعد إنشاء سدّ حديثة، شيّد جسر ثابت عظيم يعدّ اليوم من معالم المدينة.

-٦-

خبر أصفر بلون الموت يجئ مع غروب شمس راوة، يقول: "وردة بدأت تذبل وتذوب"!

-٧-

يفرّ الصبي كطائر تائه جريح، لا يدري أين يذهب أو ألي أي جهة يروح، فالمكان شرقاً وغرباً، فقد الأبعاد وضيع المسافات، وبدت راوة من أول (المسطاح) إلى آخر نقطة في البساتين، نفقاً غائراً بلا انتهاء.

تُرى من يحمل الصبي إلى عانة؟! الحنين إلى أمه يُشقيه، توجعه الأشواق! هل بوسعه أن يعبر الفرات لوحده؟! وكيف السبيل إلى (محلة السدة)؟!

-٨-

يحاول الخروج من قوقعة الذات إلى الدنيا الواسعة، فينغمر في اللّعب مع أترابه: حمادي الحمد وعبد الحميد وهاشم عبد اللطيف. يتبارى وإياهم سباحة على عبور النهر، أيهم يصل الشاطئ قبل صاحبه. وقد يتراشقون بالطين وبقشور (الدبشي). [1]

-٩-

عند حب الليل، يستلقي الصبي على بساط الرمل يكلم الفرات، النجم، والسدرة الكبرى، ثم يعاود الفرار من نفسه فيغرق في تأملاته. ومن ورائه الحصى والظلمة وخرير المياه، حتى يأتيه عمه زكريا الحياوي، فيلوذ به، يحضن أوجاعه، ويأخذه النوم، ولا يوقظه إلا صياح الديكة وآذان الفجر.

---

[1] الدبشي: سجة أهل راوة هو (الرقي) وهو (البطيخ) عند أهل مصر.

-١٠-

ترقد عانة ويغفو الناس، إلا وردة مسهدة تأكل جسدها أوجاع مبرحة، تستشعر بأن الأجل حتم آت، والموت قد قاب قوسين منها أو أدنى، وسترحل لا ريب غداً، قبل زوال الشمس. تتوالى الآلام تشتد في اليوم التالي، توقد في جسد الأم الضامر ناراً، ما بين الغفوة والصحوة، والتيه واليقظة.

تهب وردة من رقدتها، خائفة، فزعة، وتصيح بشنتافه: "يا أختي، يا أختي، يتعين الآن وعلى التو أن تأتيني بولديَّ عز الدين وأمين" بعثت شنتافة برسول يأتي بـــ (الولدين). لكن الوقت يمضي والساعات تفوت، والأم تقاوم وجع الموت، وتطوف بعينيها الباكيتين، تسحقها الأشواق ترنو صوب الباب، ثم تتلفت جهة الشباك، وتحدق في صمت الجدران تصرخ ملتاعة: "أين ولديَّ يا شنتافة؟! ماذا حلّ بالأخوين؟!" وتجيب أمُ حامد: "صبراً يا أختي قد يصلا الآن".

وتعود الأم ترفع كفيها تتوسل تدعو الله أن يطوي ولداها الأرض سراعاً يجتازا النهر فيجيئا، يعذبها التوق الآسر، وتغالب الآلام. تخشى أن ترحل دون وداع. أو يصلا بعد فوات الوقت ومجيء الموت.

-١١-

يروي عز الدين إيلام تلك اللحظات، كأنه يختزل بالكلمة كل العمر. إذْ لم ينس حتى العقد الثامن من عمره تلك اللحظة، والذكرى تسحق قلبه، تبكيه، تحزنه، تشقيه، ويقول: "... في تلك اللحظات:

كنتُ ألهو، اللعب، ما بين الشاطئ والناعور. جاء رسول من أمي ينبئوني بالآتي: أمك وردة تدعوك في الحال. إذ توشك أن ترحل هذا اليوم، قد لا تمسي هذي الليلة. وأنا من أحببت أميَّ كل الحب، لم أدرك في تلك اللحظة، معنى كلمة (قد لا تمسي هذي الليلة).

لا أدري حتى الآن؟! هل أن حب النهر وسحر المتعة، أخذاني بعيداً عن أمي؟! أم الجهل واللاعقل؟! أم أن النفس الأمارة باللهو عزلتني عن أمي؟!"

-١٢-

وأتى الليل ظلاً وحشياً ممدوداً والريحُ الآتية من شرق الصحراء تزأرُ رملاً ورماداً فيما يرقُب قلبي الغارق في نهر الأحزان أنباء ضفّة (الشط) الأخرى.

أرفع كفي وأدعو، يا رب.. يا رب. من غير الأم يبرئ أسقام النفس، من غير الأم يكفكف دمع العين، من ذا يا رب يأخذ بيدي يحملني يعبرني نهر الأحزان، لأعانق أمي، أستلقي بين يديها وأشم دفء الصدر الرحب الحاني. في شاطئ "شكره" تعوي الريح والظلمة عاصفة تلتفّ من حولي، يأكلني الخوف الليلي فأصيح ملء فؤادي. أمي.. أمي. يا وردة روحي، يا عطر الكون، وضوء العين.

-١٣-

يقول أبي: "لا أعلم حتى اليوم حقيقة ما جرى في تلك الساعة الضائعة، قبل أن يردَ النبأ العظيم من عانة. هل كان حلماً أم واقعاً مشهوداً. تحت وطأة الحزن العميق شعرت وكأن الأرض تميد بي، فعدوت على الشاطئ وحدي، وإذا بالصوت الآتي من جهة الشرق يهدر مهتاجاً، يصرخ ملتاعاً وينادي: مطني.. مطني.. (يا ابا أمين) أسرع، إلحق، اعبر، ماتت وردة... الصوت الآتي من شاطئ عانة، [1] نفذ في صدري كرمح من نار، مزّق قلبي أوصالاً، عاد الصوت المجروح يدويّ، يا مطني.. يا مطني، أسرع وتعال الآن، سمعت ربوة أصداء الصوت المذبوح، فأتى خالي جبير، يتعقبه غفير، خلفهما تعدو (فتية)، وانحدر الشختور[2] بنا قبيل المغرب، صوب (محلة السدة) في عانة.

---

[1] الذي جاء بنبأ وفاة وردة هو محمد أبو العميش، والد سند. وهو الذي كان ينادي على مطني من الشاطئ الشرقي قبل أن يعبر إلى راوة.

[2] ناقلة نهرية شبيهة بالمركب يستخدم لحمل الحبوب والحطب والأمتعة والأشخاص وهو إحدى وسائل النقل المعروفة في أعالي الفرات حتى نهاية الستينات من القرن العشرين.

ودلفتُ حجرة أمي، ألفيت وردة مسجاة فوق الأرض وجهاً وضاءً ألقاً كالورد، منغمراً بالحب وجلال الصمت، فيما الدار تصطخب بالأرزاء، ولَولة نواحاً وبكاء، وأنين شنتافة ينسل من خلف رتاج الباب. وأنا وأمين وزكية نبكي في زاوية الحجرة قدام كانون النار[1] عقب الفجر، بدأ موكب أمي يطوي عانة درباً، درباً. وعبرنا نهر الأحزان.

خرج الراويون خفافاً وحداناً، وزرافات، ملأوا المسطاح، واحتشد الراويون عند (القطعة)، [2] وأحاطوا الجثمان بالدعوات والتكبيرات. وأقيمت في صحن الجامع (الجواني) صلاة الموتى، كانت راوة حانية القلب على أمي، رقدتْ وردة في مملكة الصمت، قرب ضريح الشيخ رجب. [3] أدركت في تلك اللحظة فاجعة الموت. وبأني أصبحت يتيم الأبوين منذ الآن. ونزلنا من فوق هضبة الموت في بيت دخيل، مطني ينتبذ زاوية في ركن الدار مهموماً وحزيناً، وأنا وأمين وزكية نبكي".

-١٤-

"أمي وردة، كانت أماً مفعمة بـــ (الحنية)، صديقاً وأباً، بيتاً، ودثاراً، تملأ روحي حباً وحناناً. لم أعرف قبل اليوم ما يعنيه الموت؟!"

يعيد أبي لتلك اللحظة حرارتها الأولى، وكأنها حدثت للتو، فبعد مضي ثمانين عاماً على رحيل أمه كان قادراً على التقاط المشهد الغائب من قاع الزمن وهو يستذكره بكل جزئياته وتفاصيله.

---

[1] كانون النار: الموقد يستخدم للتدفئة ولأغراض الطبخ المنزلي أحياناً.

[2] القطعة يقصد بها (العبّارة) وردت الإشارة إليها في الصفحات السابقة.

[3] يعد الشيخ رجب الأب الروحي لعموم القرية، ولا يزال ضريحه، الذي ينهض فوق الجبل، مزاراً حتى اليوم، تنتصب فوقه قبته خضراء، وجدرانه مضمخة بالحناء فيما توقد في نوافذه الشموع أيام الخميس والجمع. راجع عبد الستار الراوي – الشيخ رجب الراوي (مؤتمر جامعة الأنبار الأول عام ١٩٩٢).

يتهدج الصوت المنغمر بالشجن العميق فينحدر الدمع. (..وكأني لم أكن أعرف بأن الموت رحيل أبدي، وأن من يطويه الردى لن يعود إلى الحياة مرة أخرى. عند غروب شمس راوة في ذلك اليوم، هاجت نفسي بأوجاع لم آلفها من قبل، أحسست بضيق في صدري، حتى كدت أختنق، فجأة بدا الكون وكأنه يتداعى، والدنيا تفقد معناها، شعرت بالغربة وبأني أصبحت وحيداً في هذه الدنيا، هرولت إلى الدار فزعاً، فألفيت الصمت والوحشة والأسى، وصدى خطواتي الفارغة يتردد في أرجاء بيت دخيل، الذي كان في يوم من الأيام يضج بالحياة، سعيداً رضياً، فأمسى بعد غياب أمي كئيباً خاوياً).

-١٥-

في الليل تستيقظ أوجاع النفس، أهرب من ظلمات الدار وصمت الحجرات. آوي تحت السدرة ليلاً، يشجيني صوت الناعور، في أقصى الشاطئ ضوء سراج باهت، أمضيت عشر ليال أمام النهر، استحضر قسمات وردة[1] وأعلل نفسي اللوّامة بعودة أمي.

قد تأتي الآن زائرة تحملها أشواق الغيبة، أو تخرج من حفرتها الموحشة ترفع عنها حجر الصمت، أغمض عيني بكفي، قد تنحدر الآن من جبل الموت، تنزل كالومض طيفاً، ظلاً، طيراً، تبرئ أوجاعي. أضغط كفي على عيني. تنثال السحب تتوالى موجات من كل الألوان، ثمة خيط أبيض ينسل نوراً. فتكتظ الرؤية بالأضواء أسراب طير، قمريات، وعصافير من ذهب تفتضُ مياه النهر تخفق في "شكَره"[2] وتطوف السدرة والدار الموحشة الصماء وتضرخ الأرض بماء الورد، أبصرها تنأى خلف الآماد. ثمة طير

---

[1] كان عز الدين في هذا الموقف يمارس عملية (الإيحاء الذاتي) وهو يغالب واقعة الموت التي لم يسعه استيعابها أو تحمل وقعها على نفسه، وهو لا يزال صبياً لم يجرب بعد فاجعة الغياب الأبدي.

[2] شاطئ شكرة وناعورها حيث كان الصبية يروحون عن أنفسهم باللعب والسباحة والسمر الليلي في الأمسيات المقمرة.

أبيض ينسرب من عين الناعور، يخفق بجناحيه جذلاً.

يصحب أمي. فأراها مشرقة الوجه مفعمة بالبشر والغبطةُ ترفل بالحليّ والديباج. يوقظني زكريا فأهب من حلمي فزعاً. يأخذني للجامع، لنصلي فرض الفجر.

-١٦-

وتمضي الدنيا هأنذا عدت للزمن الأول، أعدو فوق رمال الشاطئ. نلهو، نتسامر، ونغني. نسابق موجات الماء. نستلقي عند ضفاف (الطينة)، وعند حلول المغرب، أرقب عودة عمي زكريا آت من جهة الغرب[١] يملأ جيب (الدشداشة) بثمار البستان. زكريا.. زكريا، كان ورعاً وتقياً، يحمل قلباً كالذهب الحر ويحب الناس كل الناس.. ويفيض بالخير على الدنيا. كان وليّاً.

عذب النفس، كريم اليد والقلب سخياً كان يحملني. ويلاعبني. ويخفف عني أحزان اليتم ومعاناة الفقدان، يؤنس أيامي ولياليَّ ويقصّ عليّ (سالوفات) وحكايا.

عاش زكريا الحياوي إنساناً طاهراً، ومات شهيداً يقول[٢] عنه أبي:

"لم أنس زكريا يوماً رغم مرور كل هذه السنين على موته وفراقه، وإنسان مثله لا يمكن أن يُنسى، الورع الزاهد، قائم الليل، متهجداً، عابداً، ومن أعظم مناقبه: الإيثار، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني، نكران الذات، فقد كان يؤثر الناس على نفسه، باراً بأهله وبالأقربين. ذو قلب عامر بالخير

---

[١] جهة الغرب أو (المغرّب) إيماءة إلى بساتين راوة المكتظة بالفواكه والثمار ولا توجد عائلة إلا ولها أو بحوزتها بستان خاص بها، أو حصة فيه، والقرية بعمومها تكاد تكون أرضها بستاناً ممدوداً من (بيت طلاّع) إلى (الخريبة) وما ورائها.

[٢] قيل أن حجراً سقط من الجبل، فأصابه إصابة بليغة في رأسه أثناء إقامته صلاة العصر في بستان (المذينب)، وكان يردد الشهادتين وهو غارق بدمه، ونقل إلى مستشفى الرمادي لإسعافه، إلا أنه أسلم الروح في اليوم التالي.

والقناعة والرضى، وكان كريماً جوّاداً رغم ضيق ذات اليد، إزاء شمائله الحميدة هذه، فإن حضوره في حياتي، جعلني أتعلق به إلى حد أصبحت ظله المقيم الذي لا يفارقه، فقد أغدق علىّ الحب والعطف والحنان، وأصبحت بمثابة ابنه. واقرب الناس إليه، بعد أن حرم من نعمة الأبناء؛ ولذلك كان موته المفاجئ، الرزء الأعظم في حياتي فقد كان رحيله المأساوي فاجعة أليمة هزت وجودي كله. والحزن على غيبة زكريا لم ينقطع، بل يتجدد ويتواصل كلما جاء ذكره ومرت سيرته.

يواصل عز الدين حديثه فيقول: "ليس بوسع أي راوي عرف زكريا إلا أن يثني عليه ويشيد بإنسانيته، فقد كان ينبوعاً فياضاً من الحنان، والشيمة والنخوة والشفقة. ولا أزال ومنذ سبعة عقود وحتى يومنا هذا أدعو له في كل صلاة، وأهب روحه الطاهرة الكثير من ختمات القرآن".

وعندما نزل أبي سوريا (أيلول ٢٠٠٤) أفاض في ليلة من ليالي المسامرة في حلب بالحديث عن عمه زكريا، وهو يقول: "عندما أنظر إلى وجهي في المرآة، فإنني أكاد أرى وجه زكريا، بعينيه الحانيتين، وابتسامته العذبة، والوجه الحميم ذي القسمات الوديعة، وكأني أسمعه يناديني باسمي".

-١٧-

عاد الموت يطرق بقبضته القاسية باب بيت دخيل، فبعد أن اختطف وردة وزكريا، جاء هذه المرة على زكية، وهي بعد طفلة لم تبلغ الخامسة من عمرها.

أدرك عز الدين بأن الموت من أعظم أحزان الدنيا، التي تصيب الإنسان، حين يفجعه بفراق الأعزة من الأهل والأحباب، وقد بدا الموت وحشاً، وعدواً غادراً، وهو يستلب برمشة عين حياة أخته الصغيرة، فلم تكن وفاتها إلاّ شهقة

عابرة أسلمت إثرها الروح. هذا القدر الأعمى إذا حلّ، فإنه لا يفرق بين صغير أو كبير، لا مفر لكائن، ولن ينجو من قضائه مخلوق، فسيأتيه عاجلاً أم آجلاً.

وقد روعت بهذه الفكرة لزمن طويل، اعتقاداً مني بأن الموت يترصدني في كل خطوة وفي أية لحظة، فألوذ بالصلاة والدعاء والقرآن.

-١٨-

النهر يجري، والناعور لم يكف يوماً عن أنينه ومن يدري لعله: يغني، أو يبكي، لكن الناعور يدور، والشمس تأتي مشرقة، وترحل غاربة، والأيام تمضي، ونحن الصبية، ننمو، نكبر كما الأشجار، نرقى جبل الطار خفافاً، نقطع أرجاء البرية والصحراء، ونجول في أروقة القلعة، نلهب، نلهو، نعدو.. أو نتمشى بين بساتين القرية.. الخليج،[١] الهلالية،[٢] الزراشية،[٣] العمارية،[٤] وقد نصل الخريبة. [٥] وإذ يرفع آذان المغرب، ويحل الليل، نلتئم حول آنية عامرة بالبرغل. أو "حساء" العدس. رغم الفقر والمسغبة، كانت الحياة محتملة، لا تخلو من أوقات البهجة.

-١٩-

وقد شهد عز الدين واقعة هجوم الطيارات البريطانية على راوة، بعد أن احتضن الراويون رجال ثورة العشرين الآتين من دير الزور مع مدفعهم

---

[١] أسماء مناطق وبلغة أهل راوة فإن الواحدة منها تسمى (جرية) يقوم على سقايتها (ناعور) يعرف باسمها، طبقاً لنظام الأرواء.

[٢] السابق.

[٣] السابق.

[٤] السابق.

[٥] السابق.

وبغالهم، وقاموا بالتموين والعلوفة والضيافة، وطردوا من عانة الحاكم البريطاني. واتفقوا مع الشيخ نجرس الكعود، أحد رؤساء عشائر الدليم فهددت الحكومة أهل راوة ببيان صادر عن متصرف [١] الدليم [٢] (محمد رشيد العمري) تأريخه آذار ١٩٢١ ورقمه ١١٦٩، يقول فيه: [٣]

"إلى الراويين الطاغين الباغين، فإن لم تطيعوا وتخضعوا وتسلموا المدفع للحكومة. فيكون محققاً عندكم أن الموت الذي تفرون منه ملاقيكم. إن الطيارات إذا رفعت وإذا المدافع زحفت. فذلك يوم عسير على المتمردين".

أعقب إعلان (العمري) تهديدات أخرى، اتخذت هذه المرة سلوكاً تعرضياً عدوانياً، اقترن بقيام حكومة بغداد فرض الحصار على راوة، وعملت على تطويقها من الجهات كافة وقطع الطريق منها وإليها، فيما كان رد الأهالي على التمرد والاستمرار في الثورة على صنائع الاحتلال وذيوله المتواطئة معه. بعد أن أصبحت راوة ملجأ للثوار الآتين إليها من بغداد ومن عموم العراق، وقد وفرّ الراويون في مدينتهم ملاذاً آمناً لقيادات الثورة من بين هؤلاء الثوار:

- يوسف السويدي
- محمد الصدر
- الشيخ فيصل المغير
- كامل شبيب
- أحمد بهجت

---

[١] متصرف: أيْ محافظ.

[٢] لواء الدليم: محافظة الأنبار.

[٣] لمزيد من التفاصيل راجع: الدكتور علي الوردي – لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث، نقلاً عن الدكتور محمد مالك الفتيان أستاذ التاريخ القديم في جامعة بغداد.

- عبد الحميد القشطيني
- كريم شاه
- شريف الفضلي

وبسبب إصرار راوة رفض الاعتراف بالحكومة التي نصبتها بنادق الاحتلال، ودفاعها عن رجال ثورة العشرين الذين لجئوا إليها، شن البريطانيون الحرب على القرية الصغيرة، فأرسلوا في أحد أيام الجُمع من عام ١٩٢١ سبع طائرات تصب حممها على الأهالي، فيما استمرت طلعاتها العدوانية وهي تواصل قصف راوة قصفاً شديداً متتالياً، تمطرها بالقنابل، وتلاحق الناس بالرشاشات الثقيلة. وبالرغم من الدمار الذي ألحقه العدوانيون بالقرية الثائرة، فإن ذوي الرأي من شيوخها وأصحاب الحلّ والعقد فيها، واجهوا العدوان البريطاني بمزيد من التمرد والمقاومة.

وبعد أن أدركت حكومة الاحتلال بأن الطائرات البريطانية السبع فشلت في مهمة إخضاع المدينة أو إنهاء المقاومة، بل إن النتيجة كانت بالضد من كل ذلك، وهو تصميم الأهالي على خيار مواجهة العدوان، ورفض أية دعوة لإلقاء السلاح ما لم تتوقف حكومة الاحتلال عن عدوانها، الأمر الذي اضطر حكومة الاحتلال إلى التخلي عن أسلوب الحملات العسكرية، وتلجأ إلى المفاوضات.

فقامت الطائرات البريطانية بإلقاء (بيانات) تدعو الأهالي فيها إلى إرسال وفد يمثلهم على الرمادي لإجراء مفاوضات بين الطرفين. فاختارت راوة لذلك رجلين من وجهائها هما: محمد الفتيان والحاج مصطفى اليوسف. وكانت نتيجة المفاوضات التي أجراها الوفد الراوي مع المفتش الإداري البريطاني تضمنت الأمور الآتية:

١- إيقاف الحملات العسكرية ورفع الحصار عن راوة وانسحاب القوات

البريطانية من المنطقة.

٢- اعتبار الثوار المتواجدين في راوة ضيوفاً على أهل القرية، لا يجوز المساس بأيّ منهم مع استمرار إقامتهم في القرية.

٣- التزام راوة الهدوء ريثما يجري تشكيل حكومة وطنية في بغداد.

تُرى هل بوسع المرء أن يغض الطرف وهو يعرض لهذه الوقائع التي يعود تأريخها إلى عشرينات القرن الماضي أو يتجاهل أو يتجاوز المقاربة بين الماضي والحاضر، فالأحداث تقترب كثيراً من بعضها إلى حد المطابقة من الواقع الحالي الذي يشهد ومنذ العدوان الأمريكي الغاشم على العراق حملات عسكرية يتم تجريدها بين فترة وأخرى للعدوان على راوة ومحاولة اقتلاع المقاومة في هذه المدينة الباسلة. فقد ارتكب العدوانيون في فجر الجمعة ٢٠٠٣/٦/١٣ واحدة من أبشع الجرائم وأكثرها دموية ضد السكان المدنيين والتي راح ضحيتها مائة شهيد، عندما تعمدت القوات الأمريكية فتح نيران دباباتها ومروحياتها (الأباتشي) على بيوت راوة، مما اضطر السكان للجري خارج البيوت هرباً من القصف الوحشي.

يقول شاهد عيان من أهل المدينة: "إن (١٢) من شبابنا وجدنا جثثهم مقيدة بالحبال وقد تهشمت رؤوسهم بالرصاص، حيث جرى اعتقالهم في منازلهم ونفذوا فيهم إعدامات فورية بطريقة (النحر) الأمريكية المرعبة. أما الشهداء (٨٨) الثمانية والثمانون، فقد جرى نحرهم أيضاً وهم نائمون في منطقة (سحل الأمير) شمال غرب راوة. وعلى مدى عشر ساعات حفر الراويون مائة قبر لهؤلاء الشهداء.

وعاد الأمريكان مرة أخرى في شتاء ٢٠٠٤ حيث قتلوا ثلاثة من أبناء المدينة من بينهم زوجة محمد محسن وطفلتها الرضيعة، أردوهم قتلى بعد أن فتحوا النار عليهم عمداً.

وألقت الحملة العسكرية الثالثة الرعب في قلوب الأهالي، عندما اخترقت سبع طائرات مقاتلة وبصحبتها طائرات (الأباتشي) سماء المدينة، وهي تتناوب على شن غاراتها على الآمنين الذين فزعوا، وطفقوا يبحثون عن ملاذات آمنة. بعد أن أصبحت البيوت كالمقابر.

فيما تم إنزال جويّ على سطوح المنازل في الحملة الرابعة وقد فتح المظليون النار على السكان المدنيين، مما أصاب العديد منهم.

وكانت الحملة الخامسة التي أطلق عليها الأمريكان (السهم المضيء) والتي استمرت حوالي ثلاثة أشهر ابتداء من ١٧ تموز وحتى نهاية أيلول ٢٠٠٥، التي جرى على إثرها هجرة جماعية إلى (عانة) هي الأولى من نوعها في تاريخ المدينة فقد ارتحلت حوالي (٨٠٠) ثمانمائة عائلة جراء القصف الوحشي الذي استمر على مدى أربعة أيام متواصلة وتحولت المدينة (القرية) الصغيرة، إلى جبهة قتال مفتوحة بكل الأسلحة التي جربها الغزاة المعتدون على البلاد والعباد.

واستخدم القتلة ذات الأسلوب الصهيوني في فلسطين المحتلة، تفجير البيوت وهدم المساجد والمدارس ونسف المتاجر والأسواق وتجريف المزارع. وامتد ذراع الحملة الخامسة ليطوق المدينة من كافة الجهات ويشل الحياة فيها بالكامل، فلا أحد يدخل إليها، أو يخرج منها ومنع الحركة في عموم الطرق والمنافذ. وفرض حظر التجوال، واعتباره مفتوحاً في الليل والنهار، فأغلقت الأسواق، ومنع الوصول إلى المستشفى الوحيد، وتم قطع الماء والكهرباء عن المدينة.

رافق ذلك حملة بربرية جرى فيها مداهمة البيوت وتفتيش المنازل، واقتياد فتيان وشباب المدينة ما بين سن (١٥ – ٣٥) عاماً، ووضعهم قيد الحجز والاعتقال.

وعلى مدى خمسة أيام من الحرمان الكلي للغذاء والدواء والماء والكهرباء والصلاة في المساجد. اتخذت قوات الاحتلال الأمريكي قرار إخلاء المدينة من سكانها البالغ عددهم سبعة آلاف شخص.

وهكذا وللمرة الثانية في أقل من أسبوعين تتواصل عمليات الإجلاء، والإخلاء والهجرة الجماعية إلى (عانة)، واتخذ الراويون المهاجرون المدارس والمساجد مأوى لهم في المدينة التي تبعد عن راوة أكثر من عشرة كيلو مترات، ساروا إليها مشياً على الأقدام بعد أن منع المحتلون استخدام أية وسيلة للمواصلات، إمعاناً في الإجرام، وتعبيراً عن سلوكهم الوحشي.

عقب انسحاب القطعات الغازية من المدنية، ودعوة المهاجرين إلى مدينتهم اكتشفوا بأن السلوك العدواني الأمريكي خلّف وراءه عشرات المنازل المهدمة، والأسواق المنهوبة، واحتراق مخزن الأدوية في المستشفى. ونسف مركز الشباب الرياضي، واعتقال الطاقم الطبي. وعشرات المزارع التي تم تجريف أراضيها، وامتدت الأيدي القذرة إلى اقتلاع العديد من النخل والأشجار.

وعاد الجند الأمريكان القتلة مرة أخرى في ٢٠٠٥/٨/١٨ واستمروا في عدوانهم البربري حتى نهاية أيلول تحت ذريعة البحث عن رؤوس المقاومة!

وقد أدى حصار المدينة ومنع أسباب الحياة عنها إلى اضطرار الأهالي القيام بتوجيه نداء بمناسبة مرور شهر على تطويق راوة واحتلالها يحثون فيه الأمم المتحدة والجامعة العربية وعموم الشرفاء في العالم بالعمل التضامني لرفع الحصار الأمريكي عن المدينة وانسحاب القوات الغاشمة وإعادة المهاجرين إلى أهليهم ومدينتهم.

ولا يزال العدوان مستمراً حتى اليوم.

يقول عز الدين: [1] ".. عندما دهم الجنود الأمريكان المدججون بالسلاح، واقتحموا بيتنا في راوة يوم ١٨ تموز ٢٠٠٥ وجوه كريهة، يتطاير الشرّ من

[1] شهد عز الدين تفاصيل العدوان، إذ كان متواجداً في راوة طوال فترة الصيف وحتى بداية خريف ٢٠٠٥.

عيونهم يحملون في أيديهم بنادق سود".

قال المترجم: لا تتحركوا، ابقوا في أماكنكم. ثم انقض الجند المتوحشون على موجودات وأمتعة البيت، خلطوا الحابل بالنابل، لم يبق شيء على حاله، قلبوا الأثاث وحطموا الأسرّة والأرائك اقتلعوا الأبواب ومزقوا الأفرشة والوسائد بالحراب.

قال أبي: "بعد أن أنجز الأمريكان عملية تخريب البيت.." قال المترجم على لسانهم: "إياكم أن تأووا مسلحاً وإلا فأنكم ستدفعون حياتكم". وانصرفوا.

تئن راوة تحت وطأة رصاص الأمريكان، طائراتهم تحوم في أجواء المدينة تصب حممها هنا وهناك، في تلك اللحظة قلت لنفسي ما أشبه اليوم بالبارحة. واستذكرت حادثة العدوان البريطاني قبل ما يزيد على ثمانية عقود، في نفس المكان. بين الرابعة والخامسة من عمري كما الآن يوم غارت فوق راوة طائرات الإمبراطورية البريطانية السبع تدك بقنابلها القرية دكاً، إذ فتح الأعداء النار الحامية العمياء فاحترق الشجر والحجر والأطفال، وأصاب الناس فزع الموت، وتعالت أصوات الذعر. صراخ النساء ودعاء الآباء وبكاء الأطفال.

وعدوت هلعاً صوب الشّط، أبحث عن مأوى فلقيت خالي (جبير)، أمسك بيدي، ونفذت برفقته غار (الدعدع)،[1] وتوالى الخلق من كل فج في القربة احتشدوا حشراً في نفق الغار. الخوف يأكل أكباد الفتية والنسوة والأطفال والناس حيارى.

الطيارات المعتدية تنقض على راوة تلقي ناراً. احترقت أشجار البستان،

[1] الدعدع مغارة في جبل راوة ذات فضاء واسع، يضيق كلما أوغل الداخل إليها، ولها مزاغل عميقة لا يعرف أحد مداها ولا أين تنتهي وقد حيكت حول المغارة العديد من الروايات التي يغلب عليها الطابع الأسطوري والأخيلة الشعبية الطليقة.

وفرّ الطير. جاءت السيدة خاتون (أم سند) [1] وقالت: "إن طيوراً بيضاً خرجت أسراباً أسراباً من تحت قباب الشيخ رجب، تطوي الأجواء، وتحوم فوق المسطاح والشط والجامع الغربي، وتنث سحباً وغيوماً سوداً، حتى كفّ بصر الأعداء. فاحتجبت الرؤية في الأنحاء". ونجونا، فانتصر الخيرُ واندحر الشر، وولّى الأعداء الأدبار.

ختمت خاتمون القول: "قوموا الآن خفوا وانتشروا". رفع الراويون الدعوات والتكبيرات. وامتلأت طرقات القرية بأفراح النصر.

-٢٠-

يقول عز الدين: "سمعت موسى المطرود يتحدث عن أحوال (الجن)" فيقول:

"في آخرة الليل، عند (الدعدع)، قبالة بستان حمادي الصالح، أبصرتُ بعيني الجن مراراً، ينسربون تباعاً من غار الجبل وشقوق الصخر، سيماهم المرح، واللهو، والرقص، والنفخ بالمزمار".

وتروي حمدية الحبيني:

"الجن مخلوق لدن مطاطيّ الجسم، يتشكل ألواناً وحجوماً مثل لعُبَ الأطفال، مبثوث في أنحاء البستان، تحت وفوق الأرض، سريع الحركة، يمرح في طرقات الليل، يتوارى بين الجدران الخربة، أو يرقد بين أروقة القلعة. وتراه يرقص طرباً في أطراف البلدة".

قال الراوي: "سمعت جدتي حمدية تروي العديد من قصص الجن، وتؤكد بأنها رأت بأم عينيها هذه (الكائنات) العجيبة في بستان (المذينب) [2]، وأثناء عودتها بعد صلاة العشاء وهي في طريقها من البستان إلى دارها في درب

---

[1] توصف خاتون بالحكمة والحزم والشجاعة، أعقبت من زوجها الأول محمود الحبيني (حمدية وحمادي وشاكر) ومن زوجها الثاني محمد أبو العميش (سند ورزقية وكريمة).

[2] المذينب: منطقة تقع ما بين الطريق البراني (المسطاح) والنهر، مكتظة بالبساتين.

(البوعبيد)، [1] رأت واحداً من الجن وكان غلاماً من هذه الكائنات ظل يتبعها كالظل وهو يتراقص أمامها وبين أيديها وعندما همت بإمساكه اختفى فجأة، وحين لمحت ظهورهم لأول مرة أصابها خوف شديد، ولكن توالي تكرار المشهد أصبح أمراً عادياً حسب قولها، وأن امرأة من الجن كانت بحجم كف اليد كانت تحاول مداعبتها والتحدث معها، وأحياناً تنادي البنات بأسمائهن واحدة تلو الأخرى.

وتقول جدتي: "هذه المرأة (الجنيّة) الشبيهة بعروسة الأطفال غالباً ما تظهر بتمام زينتها، وكانت تميل كثيراً إلى اللهو والمرح تنتصب واقفة على غصن من أغصان شجرة التين الكبيرة المجاورة لسياج البستان".

ينفي أبي من جهته أنه رأى يوماً مثل هذه الكائنات المتوهمة. ولعل الإدعاء برؤية الجن من قبل البعض، له تعليل واحد وإن كان متعدد الدواعي نحو: التخيّل والإيحاء الذاتي، والتوهم ومبعث ذلك هو: الخوف من ظلمة الليالي، وخلو الطريق من المارة، والجهل، والحكايات الشائعة في أوساط القرويين.

-٢١-

عندما يطل الربيع تصير راوة كما جنة المأوى على الأرض، جمالاً وبهاء آسراً. ويصبح الأطفال والفتية ملوكاً جذلين سعداء يمرحون ما بين الضوء واللون، إذ يورق العشب في البراري فيما تمتلئ شقوق الصخر وحافات الجبل بورد شقائق النعمان. [2]

يقول أبي: "الدنيا في فصل الربيع مرح، لعب، حرية طليقة. صوب البرية

---

[1] نسبة إلى ساكنيه من عشيرة البوعبيد إحدى عشائر راوة الأربع.

[2] من بين جماليات البراري في الربيع الأزهار الأخاذة ألواناً وعبقات تتشكل لوحات فنية غاية في الروعة والإتقان. فثمة عشرات الأنواع من الورد لا حصر لها. قد تجدها عند سفح الجبل وفي الصحراء وقد تتشق عنها الصخور.

والبساتين. نمضي أوقاتاً حلوة ونحن نلقي خطانا ما بين (الخليج) [١]، (والهلالية). [٢] نقطف ثمار الكمثرى ونهز جذوع النخل. يتساقط علينا (الكامر) [٣]. أو نتمشى عند ضفاف النهر، ونطوف حتى آخر خط في أفق الغرب نتفيأ ظل السدر والكافور. نسبح في الشط نتبادل ضرب (الجوت) [٤]، وثمة مسابقات تجري بين الفتية لعبور النهر. نلهو في (الطينة)، قد تحظى بدبيشة أو قليل من القثاء.[٥] ونعود للبستان، نقتطف رمان "اللفاني"[٦] ونطارد بين الأشجار طير "الشكرك".[٧] ونمد الخطوات ونجوس المسطاح نستلقي فوق رصيف (حاج محيسن). [٨] في آذار ونيسان وأيار ننسى تعب الأيام.



---

[١] الخليج: ذراع من الفرات يقع بين بيت طلاع والهلالية وهي إحدى مناطق البساتين غربي المدينة.

[٢] الهلالية: منطقة بساتين تقع غربي راوة. ينسب اسمها إلى بني هلال والى أبي زيد الهلالي، ويطلق عليهم أيضاً الهلالية، وهم من سكان راوة الأصليين إلى جوار (بني لام) ولأسباب غير معروفة تاريخياً احتدم الخلاف بين القبيلتين ثم تحول إلى صراع دموي بينهما. أفضت نتائجه إلى هجرة الطرفين عن راوة. فالهلاليون ارتحلوا إلى (نجد والحجاز)، والقليل منهم تجه إلى بلاد الشام واستوطن في نواحي (حلب) أما بنو لام، فقد آثروا النزول إلى الجنوب فأقاموا في مدينة (العمارة) وضواحيها.

[٣] الكامر ثمرة (التمر) غير النضيجة عندما تكون في مرحلتها الأولى، وتكون خضراء اللون..

[٤] الجوت ربما هو (الشوت) في الإنكليزية.

[٥] وتعني [illegible] أهل العراق (الرقي) و(البطيخ) في مصر.

[٦] اللفاني نوع من الرمان يتميز مذاقه بـ (الحموضة) الشديدة.

[٧] طير أكبر حجماً من الحمامة ذو ألوان زاهية، رشيق الحركة.

[٨] يمتد على طول الجناح الشرقي للمدينة من جهة (المعبر).

مشاق العمل

(١٩٢٧ — ١٩٣٧)

-١-

في الثانية عشرة، باشرت تجربة العمل (الطوعي)، فالراوي كان يعمل بـ (الفزعة) و(النخوة)، ما من أجر يدفع مقابل العمل، والعرف الشائع في قريتنا يلزم الشباب بالمعاونة لبناء دار أو شق طريق أو تعمير رصيف، الكل يسعى تلقائياً من غير أجر أو يومية، فالمؤازرة يوجبها مبدأ التكافل الاجتماعي الذي يحتم على الجميع التضامن فيما بينهم في السراء والضراء. وظلت (الفزعة) إحدى التقاليد الاجتماعية في راوة حتى عهد قريب.

-٢-

عندما بلغ الرابعة عشرة، بدأ عز الدين مرحلة أخرى من حياته، بعد أن أيقن أن (العمل) بالأجر أمر لابد منه وهو المهنة التي باتت مؤكدة.

يقول: أنه جرب كل الأعمال المتاحة في زمانه لم يبق منها نوع إلا ومارسه، فقد اشتغل فلاحاً ومزارعاً في المهدية [١] إلى جوار مطني العساف وحضر وعايش مواسم الحصاد، وبعد أن زرع وحصد الأرض وعرف مشاقها، انتقل إلى مهنة صيد (السمك) مع خاله عبد الجبار الطه. وعرف (الرعيّ) أيضاً، وخبر الكثير من هموم الراعي. ثم عمل لفترة ليست قصيرة بـــ (الجص)، [٢] ويقول: "أبدأ العمل عقب صلاة الفجر، قبل أن توقظ الشمس

---

[١] منطقة زراعية تبعد حوالي ٤٠ أربعين كيلو متراً عن راوة وتعود ملكيتها إلى بيت دخيل.

[٢] مادة البناء الأولي التي برع بصناعتها وإنتاجها بعض بيوت (الشعبة) في راوة.

الديكة، حتى يحين المغرب، وقد عملت لدى (صالح اليحي) [١] أجيراً باليومية، في نقل مادة الجص من إحدى (كور دعيبلة)، [٢] وبقيت على هذه الحال شهوراً وسنين، وأنا أحمل الجص، والحجر، والتراب، وعلى مر الأيام أنست العمل الصعب واعتدت على تحمل مشاقه أينما وجد وأياً كان، صيفاً أو شتاءً ولم يزد أجري اليومي يومذاك عن نصف روبية،[٣] دون التقيّد بتوقيت لساعات العمل أو مراعاة الجهد المبذول، فقد يتطلب الشغل الاستمرار فيه إلى ما بعد منتصف الليل دونما توقف أو راحة، بل سلسلة متواصلة من (الخطرات)، [٤] أحمالاً ثقالاً على ظهور الدواب من (دعيبلة) إلى راوة أو (الشعبة). [٥]

-٣-

وعندما بلغ عز الدين محمود السادسة عشر وما تلاها اشتغل (مداداً)، [٦] فخاض مياه نهر الفرات، مشرّقاً ومغرّباً. وقد أجمع أهل الدراية بأن أي عبارة مهما كانت فصاحتها، لا يمكن لها أن تضع تعريفاً جامعاً لوصف مشاق هذه المهنة ومعاناة أصحابها.

يقول أبي: "المداد مهنة التعب المستديم والعذاب المستطير، إذ لابد لمن

---

[١] كان يمتلك كورة (فاخورة) لتصنيع الجص بطريقة يدوية وهو من أهالي الشعبة الذين اختصوا بإنتاج هذه المادة عالية الجودة.

[٢] دعيبلة منطقة ضمن حدود راوة، تعد مركزاً لكور الجص.

[٣] الروبية عملة تركية تعادل (٧٥) خمسة وسبعين فلساً عراقياً.

[٤] الخطرات جمع خطرة المقصود بها (نقلة) أو (حمولة).

[٥] الشعبة: موقعها شرقي راوة. تضم أحد فروع عشيرة البواصيك ويعرف أهلها بـ (بيت طلحة) غالبيتهم شقر بيض البشرة حاذقون في العديد من الصناعات كالزوارق والفخاريات والسّلال والجص.

[٦] مهنة تفوق طبيعتها أي عمل شاق مألوف ومن الصعب وضع تعريف محدد لها ولعلّ النص يكشف عن بعض جوانبها.

يعمل بها أو يضطر إليها أن يكون شجاعاً صلب العود قوياً يتمتع بقدرات نفسية وجسدية، يتجاوز بهما الزمن والجوع والراحة والمأوى، وأن يكون نابهاً ويقظاً طوال الرحلة حيال مفاجآت النهر.

ويوم اخترت المدادة، اخترتها مضطراً، بعد أن شاعت البطالة في كل مكان، فلم يعد من سبيل أمامي لمواجهة غائلة الفقر، إلا اللجوء إلى هذه المهنة المرة التي كانت الأغلبية من الناس بما فيهم الرجال الأشداء تعزف عنها لمشاقها وأهوالها.

وهكذا حملت أعوامي الستة عشر وأنا أخوض غمار المجهول وبدأت المغامرة.

الرحلة في البدء كانت تجري كحلم جميل، فالشختور[1] ينساب في مجرى النهر ليناً وناعماً، ثم ننحدر مع التيار النازل، وليس هناك إلا (مقود) الربّان نستعين به على ضبط الاتجاه وتحديد المسار، وبالضد تماماً تكون عملية (الصعود) (المناحرة) [2] فتعني الاستعداد والشدة، واليقظة، والقوة، والمقاومة. فلا الربان ولا مساعدوه بوسعهم أن يفعلوا شيئاً من غير الملاحين الآخرين، فالأمر يعني مقاومة التيار وعلى المداد أن يشق الفرات بصدره، هكذا الحال إذا كان الشختور يتجه نحو أعالي النهر، فعلينا مغالبة قوة المياه المنحدرة ومصارعة التيار، والروجات [3] المتدفقة، عندها يقوم المدادون بسحب الشختور (المحمل بالغلة والحطب والحبوب وبأحمال أخرى) بالأذرع والصدور ولا يتوقف أيّ منا عن المقاومة العنيفة، وهو يجوس الشواطئ وحافات النهر حافياً ونصف عار. وتتضاعف مشاق المدّاد. في فصل الشتاء

---

[1] الشختور وسيلة نقل نهري تقليدية شائعة الاستعمال في الفرات جرى التنويه بها في الصفحات السابقة.

[2] الإبحار ضد التيار.

[3] روجة: أي موجة.

تصير عذاباً مستطيراً إلى الحد الذي نظن فيه بأننا نكاد نفقد الإحساس بأطرافنا من شدة البرد وانجماد المياه.

وعندما يفيض النهر في نيسان فإن المداد يصل إلى ذروة المعاناة، فالكل يصير واحداً، تتكاتف الأذرع والمناكب والصدور يلفون الحبال المتينة على البطون، ويحكمون (المساقات) [1] حول صدورهم، وهم يواصلون سحب الشخاتير المحملة بالغلال والحطب. وقد يمتد السفر أياماً وليال على خط العذاب الصاعد صوب أعالي الفرات.

ويتعين على المداد خلال عملية (الجرّ) أن يكون يقظاً، فيصلب ساقيه، ويهيئ موضع الخطوة الثانية قبل أن يضع الأولى، وإلا فإن المد العالي قد يوقعه أو يفقد زمام المبادرة فيطويه الروج أو يجذبه الشختور نحو القاع.

وغالباً ما يرتاد المداد خلجاناً، فتغوص قدماه في الأوحال والطين، وقد ينزلق إلى حفر عميقة، فيغمر جسده الماء وهو يواصل جر الشختور، تدمي ساقيه الشواطئ المتعرجة ونتوءات الصخر الحادة حتى تتقطع أنفاسه، وتخور قواه ولكنه يقاوم كل هذه الصعاب بقدر هائل من العزم.

وقد يشفق المدادون على أنفسهم فيمنون عليها بـ (استراحة) عابرة أو غفوة قصيرة، وقد يلقي المداد جسده المهدود على الشاطئ، وهو يحاول معالجة كفيه المتآكلين والجروح المبثوثة في صدره وساعديه جراء خشونة ألياف الحبال، ويستذكر أبي رفاقه الذين عمل معهم منهم: "حمادي الحمد الذي كان ملاحاً ماهراً، مصطفى المحمد، شعلان الثريا، علي الهويدي وعبد العزيز الصالح.

إن لكل واحد من هؤلاء الرجال الشجعان ذكرى طيبة في قلبي، فقد غربنا وشرقنا لمسافات بعيدة مرات ومرات، ونحن ننتقل صوب مدن عديدة:

---

[1] مفردها (مساقة) شبيهة بالحزام يلفها المدّاد حول صدره أو بطنه تساعده على عملية جرّ الشختور.

الربط، دغيمة، السنجق، حديثة، هيت [١].. ولم أنس حتى اليوم الحادث الأليم الذي أودى بحياة شعلان الثريا، حين سقط المردي من يده في رحلة شتاء، فانزلق وسقط في المياه الباردة فمات غرقاً.

-٤-

في ليالي راوة المقمرة، يبدأ الفتية تقويماً خاصاً للمكان والأزمان. فالقمر في أماسي القرية يعني مائدة ممدودة بالأنس تتسع فيها دائرة الصحبة، فيشع عبق المسامرات، وسحر المرويات القديمة (بين رحيل ونزيل) تتقلنا أحداثها العجيبة وراء الدنيا، فننأى عن الحاضر إلى ما ورائه، حتى يتضاءل الإحساس بالواقع، في مقابل يقظة الذات وتوقها الحر لمعرفة الظواهر الغامضة، والكشف عن ماهية الأشياء. ثمة وقت متاح أمام الفتى وهو يلج طور النضج والتكوين؛ لأن يتعلم ويتنور ويبدأ مرحلة أخرى من التفكر والتدبر والتعليل. تبتدئ مسامراتنا وقد لا تنقضي الأحاديث الندية ونحن نفترض رمل شكره[٢]، أو نستلقي فوق قنطرة الناعور[٣]... وكان (العشق) هو الحديث الأثير لدى الفتيان يليه حلمنا بالزواج، وبتلك الليلة التي تتوج فيها أحلامنا المؤجلة.

ولم تقتصر الليالي خاصة (التعاليل) [٤] على جيل بعينه، فقد حاولت الاقتراب من المجالس والدواوين [٥]. أصغي لأحاديث الكبار ذوي الرأي والمشورة، وأغرب ما سمعت في حياتي آنذاك، حديث الحاج علي العبد [٦]

---

(١) قرى ومدن تقع على ضفتيّ الفرات الأعلى ضمن محافظة الأنبار.

(٢) رمال الشاطئ النظيفة الناعمة، خير بساط للجليسة في ليالي الصيف.

(٣) بلغة أهل راوة الطرك أي رصيف الناعور الذي يعد مكاناً أثيراً لدى الفتية والشباب في تزجية الوقت.

(٤) مفردها (تعلولة) أو (تعليلة) أي: سهرة.

(٥) مفردها ديوان أي مجلس يؤمه كبار السن ووجهاء القوم لتصريف الأمور وتزجية الوقت، وقد تتحول جلساته إلى ندوات حوارية تناقش شأناً عاماً، أو مشكلة ما، وكثيراً ما تروى فيه الروايات والحكايا.

(٦) علي العبد أحد عقلاء راوة ومن فقهائها، وفي طليعة المتنورين من أبناء جيله عمّر طويلاً. وهو يقصد=

وهو يقول: "أيها الراويون اسمعوا وتذكروا سوف يبيع الإنكليزي عليكم الهواء والماء والضياء". فعجبت من هذا القول وحسبته في البداية ضرباً من الدعابة، إلى أن تحقق ذلك.

-٥-

في السابعة عشرة، تتفجر ينابيع الذات، فيجذب الفتى عز الدين فيض الشباب وفورة الفتوة، فيظهر على استحياء منه اهتماماً مفاجئاً بـــ (المرأة). بعد أن غدا رجلاً مما ضاعف إحساسه بـــ (المسرات)، فطفق يبحث عن أفراح القرية، يطل عليها ويشارك أترابه وأصدقاءه في إحياء لياليها، ويحاول معرفة مواقيت الأعراس، فيسترق النظر وّجِلاً للعذارى، لعل إحداهن تقع في قلبه، أو أن تكون من نصيبه يوماً.

في هذه المرحلة من العمر تضاعف اهتمام الفتى عز الدين بمظهره، وزاد من عنايته بالشكل والهندام، نظافة الملابس، تصفيف الشعر، استخدام العطور الحلبية الشائعة في زمانه، ومنافسة أقرانه في (الجوبي) [1] لا أدري إن كان أبي قد جرب في شبابه (العشق) وتقلب بين مواجيده وأحواله أم لا؟!

حاولت مراراً وأنا أحاوره حول سيرته أن أحظى بجواب شاف عن هذا (الموضوع الشخصي)، إلا أنه لم ينوّه بشيء محدد، وإنما كان يكتفي بالقول، (بأن من أعظم سجايا المرأة، العقل والجمال) (وإن الله جميل يحب الجمال).

وأحسب أن رجلاً مثل عز الدين المعروف بشفافية عاطفته، وتوقيره لجماليات الصوت والصورة، لا يستبعد أن مرّ في شبابه بتجربة عاطفية من

من ور[illegible] مقولته (الكهرباء والماء ووسائل التكييف) ومن بينها (المروحة) التي لم تكن معروفة في القرية [illegible].

[1] الجوبي [illegible] (الدبكة) ضرب من الرقص الشعبي الجماعي الذي يقترن بالغناء الحماسي إظهاراً للقوة والتلاحم الاجتماعي، ويقام عادة في الأعراس والأفراح والأعياد.

نوع ما، ولعلَّ حياءه وتقواه يمنعانه من التصريح بهذه التجربة.

إذا لم يكن أبي قد عرف أو اقترب من هذه الخبرة الإنسانية، فمن إذن أورث أولاده الأربعة كل هذا التوقير للجمال؟!

-٦-

يمتلئ القلب بالبهجة، وتزدهر بالرفقة أيام العمر، عقب هطول الأمطار يمضي فتيان القرية أسراباً جهة (البرية) [١] يجوبون منذ مطلع الشمس ودياناً وسهولاً، يشقون بالأيدي الأرض بحثاً عن (الكمأ) [٢] المخبوء بين العشب وورد الصحراء.

تنتقل الخطوات وثباً بين الوديان وأخاديد الغار. حتى إذا جنّ الليل استلقى الفتية فوق العشب وعند النبع وعيون الماء.

في البرية وآفاق الصحراء. أصوات. أصداء. وعواء، ذئب يعدو. تومض عيناه في جوف الظلمات فيما تطوي الغزلان الأرض خفافاً. في اليوم التالي، وقبيل هطول الليل، يجتاز الفتية الظلمة، والدرب الموحش والخوف، فيعودون سراعاً للقرية، والذئب ليس بعيداً يترصّد وقع الأقدام. أصوات رعد وعواء ترتج الأرض تأكل منا القلب وتصمّ الآذان. ريح صرصر، زخات مطر، نبحث عن ظل، كهف، غار، يأوينا من "غائلة الليل".

-٧-

في ضفة النهر الأخرى، نمضي زمناً عذباً، بين الجد واللعب، ونطوف

---

[١] البرية أرض مفتوحة على جزيرة غرب راوة وما وراءها وكثيراً ما كان الفتية والشباب يقومون برحلات ترويحية خاصة في موسميّ الربيع والخريف.

[٢] الكمأ: مما تستنبته الأرض تلقائياً.

بصمت وخشوع حول مقام المشهد.[1] هوذا تذكار (الأسد الغالب) علي بن أبي طالب، إمام الفقراء وعشاق القرآن. ترقى الروح سابحة في أنوار ذي السيفين وتقام في حضرته أفراح الراويين، ويعلو إيقاع الدمام بمواويل الحب والأشواق. فتدوّي في الآفاق الأصداء.. يحتشد الناس الآتون فرحين. يسري في الأوصال الوجد. تتدفق من صدر الفتيان حمى (الهوسات) وتدك الأرض الأقدام وتردد نحن الفتيان: "صفن بالبيض شهود اللّنه وين يروح المطلوب لنا".

الدبكة عاصفةً تتفجر ينبوعاً فياضاً في النفس وأعماق القلب. تنتفض الأرض. وترقى الروح نحو الأفق الأعلى. وجْداً أحوالاً ومقامات. ما إنْ تذوى شمس المغرب ويحلّ الليل، حتى تعلو أدعية ورجاء. تغدو كلمات الزوار أُنساً،هَمْساً، ودعاءً، تتألق شرفات المشهد بالشمع والصندل والحناء ونعيد تلاوة فاتحة القرآن. فيما يهدي النهر الخالد أشواقَ الحبِ للأسدِ الغالبْ.

-٨-

منذ البدء كانت الصلاة في وجدان عز الدين صبياً وفتى، ميقاتاً معلوماً، كان عمه يصحبه إلى الجامع، أو يوقظه مطني قبيل الفجر. فيعدو للنهر يتوضأ، ويتخذ مكانه في المسجد الغربي. ولا يتذكر الفتى أنه تعمد في يوم من الأيام أنْ تخلى عن الصلاة، فقد حرص منذ سنواته العشر الأولى على مداومة الفروض الواجبة صلاة وصياماً، وكان القرآن منذ تجربته في (الملا) لا يفارقه يتلو آياته على الدوام، وظل الصوت الشجي الأقرب إلى وجدانه،

---

[1] المشهد: عبارة عن حجرة قائمة لوحدها في الضفة الغربية من الفرات، أضفى عليها الراويون صفة القداسة بوصفها (المكان) الذي أقام فيه الإمام علي بن أبي طالب (ع) خلال رحلته الطويلة في مطاردة (الخوارج)؛ لذلك فإن المشهد باعتقادهم مصدر بركة تقام في رحباته أفراح (الزواج) (الختان) (الأعياد).

فكان يحاول اقتفاء أثر القراء الذين يجيدون التلاوة المشهود لهم برخامة الصوت، وعذوبة الترتيل، يقول عز الدين:

(عندما أسمع صوتاً حنوناً دافئاً، أشعر بأني أرتقي مقامات الروح، وكأني طائر حر يحلق طليقاً في الفضاءات الواسعة).

(وعند انقضاء صلاة الفجر، تنبثق خيوط النور الأولى، وحين تصير شعاعاً، أكون في موقع العمل اليومي).

-٩-

ما بين السابعة عشر والثامنة عشر أومأ قلبي باستحياء، وأنا أهمس في أذن مطني العساف، أن حان الوقت وحل الوعد بالخطوة الكبرى: الزواج. (أن أوي إلى ظل امرأة من أهلي، تصبح لي خيمة بيتاً، شمساً، ودثاراً).

سُعِدَ أبو أمين، باركني وقبلني، فاضت عيناه فرحاً، ويواصل عز الدين حديثه:

"اخترت مليكة حمادي الصالح رفيقة عمري، منذ طفولتنا الأولى، كنا نلعب في بستان أبيها، كان المهر (ديناراً واحداً) لا غيره ومليكة تشاطرني اليتم، الكرم، القرب.. كنا أطفالاً نتراكض في جنبات بستان أبيها حمادي صالح النعمان نمضي أوقاتاً عذبة نتسلق أشجار التين. أو نسبح تحت ظلال الصفصافة نجتث أعواد قصب السكر، ونتذوق ثمار الكمثرى، في يوم ما، صاحت مليكة: "كفوا عن قطف الثمرات، وانفضوا فوراً وإلا فالويل لكم!"

وعلى صوت ابنته جاء حمادي يعدو يستطلع الأمر، ربت على كتف مليكة وخاطبها: "يا بنتي الملك لله وحده هذا بستان الله ليس لأبيك فيه أكثر مما للناس فالبستان من حق الآتين إليه لا نمنع أحداً أنْ يدخل أو يقطف منها ثمراً هذا من فضل الله علينا أهلاً بالضيف الآتي.

ويقول عز الدين: "يدعونا أبو ناصر الرجل الورع الإنسان فيطعمنا بيديه من ثمرات البستان. ويودعنا بأرق الكلمات". كان حمادي صالح النعمان رجلاً توقره راوة وتحبه وكان مهاباً وسخياً وشجاعاً.

اقترنت مليكة بعز الدين في ربيع ١٩٣٤، وزفت إليه عقب صلاة المغرب، انحدرت من درب البوعبيد إلى شاطئ (شكرة)، تصحبها عشر نساء [1]:

-١٠-

تقول أمي:

"قد تسقط من ذاكرة المرأة وقائع لا حصر لها في الحياة، وقد تنسى أشياء كثيرة عزيزة عليها، لكنها تحتفظ وإلى آخر يوم في حياتها بواقعة زفافها. أنها اللحظات الأكثر حضوراً ورسوخاً في رأس المرأة.

كان الصداق المقدم ديناراً واحداً، وحلية من الفضة (حجل) فرحت به أيما فرح وزهوت برنينه وأنا أضع خطواتي في موكب الزفاف. واقتيدت مليكة ذات السنوات الأربع عشرة إلى الحجرة العلوية (المجلس) مطفأة الضوء إلا من سراج واهن في دار زكريا" في تلك الليلة ولج عز الدين باب الدنيا فرحاً مستبشراً. وهو محاط بالعمام والخوال. وزغاريد تصدح بها عمتاه خديجة وعائشة.

يقول عز الدين: "لم يتعد حلمي أن أرزق بولد يحمل اسمي، لكني لم أدرك وقتئذ مسؤولية الحياة الزوجية إذ تواصلت انشغالاتي اليومية الأولى. فلا أعود إلى الدار إلا بعد انقضاء الليل. وبقيت على هذا الحال فترة من الزمن، وكما

---

[1] حمدية لحيني، خديجة وشقيقتها عائشة عبد الدخيل، جمينة لعمير، بدوية، عائشة صالح النعمان، فتية العساف. فتحية العساف، هضيمة، خميسة، بنات حماد الصالح.

الأيام الماضية قبل الزواج فما أن انتهي من عملي اليومي. حتى ألحق بأصحابي في المقهى. نتشاغل في لعبة (الدومينو) و(الكان كان) إو نزجي الوقت في الحديث، أو نمضي المساء عند ناعور شكرة، وقد نأوي إلى (ديوان) من الدواوين.

وكان آخر شيء أتذكره هو (البيت) عندما أشعر بالجوع، حيث أتناول ما يتيسّر من طعام الذي لم يزد في تلك الأيام عن (حساء) أو (إدام)، أما اللحم والرز فلا يقدمان إلا في أضيق المناسبات كولائم الفرح والدعوات. لكن الحياة كانت رضية، سعيدة، رغم الفقر والفاقة والإملاق. وقد أثبتت مليكة أصالتها فقد آثرت هذه المرأة النبيلة الصبر الجميل والنوم على الطّوى. ولم تشأ يوماً أن تبوح لأحد بمعاناتها، وهي تبعث إليّ النقود إلى بغداد أثناء خدمتي العسكرية، فقد اضطرت أن تبيع حلية الزفاف (حجل فضة) لترسل ثمنه إليّ، واشتغلت من الفجر إلى ما بعد منتصف الليل في عمل مرهق، هو الحلاجة (إخراج القطن من الجوز).

وعملت كذلك في تمشيط الصوف وتنقيته من الشوائب، ولم يزد أجرها اليومي في اليوم الواحد آنذاك عن (١٥) خمسة عشر فلساً، بمعدل عشرين ساعة عمل في اليوم، وكانت تبعث ما يأتيها جراء هذه الأعمال الشاقة إليّ في بغداد بمعدل نصف دينار شهرياً، ولا تبقي لنفسها شيئاً.

-١١-

عندما خطوت نحو الثامنة عشرة من عمري، خضت تجربة فريدة من نوعها، وكانت المرة الأولى والأخيرة في حياتي، فقد اتجهنا إلى أطراف بغداد أنا ومنير الغدير ومحمد الخليل وحمادي التشريب، وكانت وسيلة التنقل

(الشختور) إلى هيت،[1] ومنها ركبنا حافلة البريد إلى (أبي غريب) [2] حيث اشترينا من الرعاة هناك قطيعاً من الأغنام، لم يزد سعر الخروف (الكبش) عن ربع دينار في ذلك الوقت.

وبدأنا رحلة العودة العجيبة نحن الأربعة نقود القطيع مشياً على الأقدام من (أبي غريب) إلى راوة، وبالرغم من أنها التجربة الأولى في قطع مثل هذه المسافة الطويلة التي لم أعهد مثلها من قبل، فإنها كانت على مدى الأيام العشرين التي استغرقها المسير من التجارب الممتعة، بصرف النظر عن الإرهاق الجسدي وأوجاع الساقين والقدمين. فالألفة بين الأصحاب تذلل الصعاب وتجعل الطريق ميسّراً مهما طالت فيه المسافات، وعند اشتداد حرارة الشمس نأوي إلى النخل أو الشجر نتفيأ بظلالها، ونقطع آماد الليل بالقصص والأحاديث؛ لننهض قبيل الشروق، فنصلي فرض الفجر ثم نواصل المسير، ومررنا أثناء الرحلة بكل القرى والمضارب والمدن على ضفة الفرات. وكلما رأينا عشباً توقفنا عنده إلى أن يأخذ القطيع وقته من الرعي.



[1] أحد أقضية محافظة الأنبار.

[2] أبو غريب (ناحية) تابعة لقضاء الفلوجة.

وقائع الجندية

(١٩٣٥ — ١٩٣٩)

-١-

حين بلغ عز الدين الثامنة عشرة سيق إلى تجنيد عانة. حيث تقرر إلحاقه بمعسكر الوشاش[١] في بغداد لأداء خدمة العلم الإلزامية بوصفه جندياً مكلفاً.

وعندما حان موعد السفر إلى العاصمة، كان على عز الدين الذي لم يعتد مغادرة راوة أو السفر البعيد عنها إلا مرة واحدة في حياته أن يعاني من مشاعر مختلطة، بين التوق إلى بغداد المدينة التي سمع عنها كثيراً واقترب منها يوماً في رحلة تجارة (الأغنام) إلا إنه لم يرها، وبين مشاق الاغتراب عن الأهل والمرابع والأقران. يقول أبي:

"... كان مشهد الوداع مؤثراً. مليكة توصيني بنفسي خيراً، وأن أرسل (خطاً) [٢] فور وصولي، وأبو أمين – مطني العساف– يعانقني ويذكرني بأن لا أنسى أن أبعث (مكتوباً) عن أحوالي ويحملني سلاماً حاراً إلى أخته فتحية وخالي جبير والأولاد.

ودعت الصحب والناعور، وشط شكرة، وبيت دخيل، وارتقيت مفازة الجبل وانحدرت إلى (الشعبة)، ومن شاطئها عبرت بـ (الزورق) إلى عانة، ووجدت حافلة البريد [٣] في موقفها المعهود في (رأس الغربي)، واتخذت مكاني فيها.

---

[١] معسكر الوشاش يقع قرب مركز العاصمة في جانب الكرخ ثم تحوّل في سبعينيات القرن الفائت إلى (منتزه) كبير عرف باسم (الزوراء).

[٢] الخط هو (الرسالة) وقد تسمى (مكتوب) أيضاً.

[٣] كان لهذه الحافلة مواعيد محددة وثابتة في الذهاب والإياب من عانة إلى الرمادي وبالعكس. إلى جانب نقل الركاب كانت تحمل أيضاً أكياس البريد بين المدن التي تتنقل بينها.

بدأت الرحلة في ذلك الصباح المبكر، بدا الطريق طويلاً، وأنا كالتائه بين الهواجس والخواطر، ولا يقطع هذه الفوضى النفسية إلا محطات الاستراحة، فقد نزلنا في حديثه وهيت، واستبدلنا حافلة البريد بأخرى في الرمادي، ووصلنا بغداد. قبيل المغرب، حيث أنزلتنا الحافلة في كراج خزعل العاني [١] بعلاوي الحلة ومضيت إلى بيت خاليَ في الرحمانية [٢] قبل أن ألتحق بمعسكر الوشاش. ولم يكن في جيبي إلا ديناراً واحداً وصرة ملابسي.

-٢-

يقول عز الدين: التحقت في اليوم التالي بمعسكر الوشاش، في البداية واجهتني وزملائي الجند الآتين من القرى البعيدة معضلة ارتداء ما لا عهد لنا به البدلة العسكرية، وبشكل خاص البنطال والحذاء الثقيل – البسطال– الذي يزن رطلاً، فأجد صعوبة في نقل خطواتي، ولكن مع مرور الوقت ومضي الأيام. اعتدنا عليها، بل كان يجب علينا أن نتكيف معها، تلاحقنا أوامر رئيس العرفاء، وهو يتوعدنا بالثبور وعواقب الأمور أن أخطأنا أو تجاهلنا النظام.

بوق القيام، كان بمثابة الإعلان الأول للقيام والنهوض، والجند كل منهم يستعجل صاحبه، لئلا يتأخر عن موعد التدريب، الذي كان في الأيام الأولى للخدمة عنيفاً ومرهقاً، ولكنني تقبلت مشاقه في كل الأوقات والفصول، فقد أمدتني تجربة (المدادة) بخبرة تحمل التعب المر والعمل العنيف، وزودتني بطاقة جسدية ونفسية مكنتني من تحمل الأعباء والالتزام بالواجبات. أمضيت في الوشاش حوالي أربع سنوات، كانت خدمتي العسكرية طوال هذه الفترة

---

[١] يقع في جانب الكرخ قرب علاوي الحلة وهو (الكراج) الأكثر شهرة منذ الثلاثينيات حتى ستينيات القرن العشرين، المخصص لنقل المسافرين والبضائع بين بغداد ومحافظة الأنبار.

[٢] الرحمانية منطقة مجاورة للشيخ معروف في الكرخ.

موضع تقدير زملائي، كما حظيت باحترام الأمرو رؤسائي، وكان الرئيس (النقيب) أحمد فؤاد فارساً يحب الخيل حباً شديداً فعهد إليّ شخصياً برعاية حصانه الأصيل.

وقد شغفت به، وتعلق بي، حتى تعود كل منا الآخر، وأصبح هذا الحصان شغلي الشاغل، إذ كان علي الاعتناء به، نظافة وتدريباً.

وكنت أقوم بتدريبه (أخبه) كل يوم في أوقات العصاري، فامتطي صهوته، واختال به في شوارع وطرقات الكرخ، كان فطناً وذكياً، ناعماً، جميلاً، أحمر اللون، يخب الأرض بشمم وكبرياء.

وكنت في أيام الجُمع والعطل الرسمية أطوف به علاوي الحلة والرحمانية، وساحة الشهداء وخضر الياس. ثم نأتي النهر فيرد الماء. وفي فصل الصيف ننزل معاً الشط فنعوم معاً.

وبمرور الأيام اكتشفت فيه خصائص نبيلة، فهو كائن نابه لمّاح، أحاوره بلغة الإيماءات يفهمني وأفهمه طبعاً ومزاجاً. وكان مفرط الحساسية، شفافاً، فحين كنت انقطع عنه وتطول الغيبة بيننا، تراه منكفئاً على نفسه، عزوفاً عن الطعام. وما أن يلمحني مقبلاً حتى يثب، فيجيء إلي، وكأني ألمح في عينيه عتاباً وشوقاً، فأعانقه وأقبل غرته البيضاء.

إنه يتحدث ولكن بطريقة اللفتة، النظرة، الحركة، صار الحصان صديقي، أمضيت بصحبته أيام العسكرية، حتى أصبح الكائن الأقرب إلى نفسي.

-٣-

حين ينأى الطريق فإن المسافة تتباعد بين الكلمات، لكن الليالي وحدها هي التي تتحد وتتكثف، فيصير الانتظار وكأنه دهر بلا نهاية أو حدود، هكذا وجدت نفسي وحيداً غريباً، وأنا أرقب أخبار أهلي التي انقطعت فجأة عني،

فلم يعد بوسعي إلا أنْ أمَنّي النفسَ بـــ (خطٍ) أو (مكتوب) يبدد وحشة قلبي.

وحين تنقطع الأنباء أو تتباعد أخبار راوة، فإني لا أجد أحداً أقرب إليَّ من الحصان الأصيل، وكأني أحس بأنه كما لو يشاركني أوجاع الغربة، والآن ونحن في سنة ٢٠٠٤ كما يقول عز الدين، وعقب مرور ما يقارب الستين عاماً على فراقي له، فلا يزال هذا الكائن الصديق الجميل يحتل جزءاً من وجداني وذاكرتي، إلى جوار رفقتي الآخرين:

- عبد الحميد إبراهيم
- نوري أرحيم
- ساكن الجلعوط
- محمد الكرحوت

-٤-

خلال خدمتي العسكرية في الوشاش جربت مشاهدة أفلام السينما مرتين تحت دوافع الفضول لاكتشاف ما هو غامض ومجهول وكذلك لإلحاح الصحبة والأصدقاء. وفشلت في المرتين في مواصلة مشاهدة الفيلم حتى النهاية. فخرجت من السينما فراراً أبحث عن الهواء، إذ لم أطق القاعة المغلقة كما استوحشت الظلمة الثقيلة؛ بحيث أحسست بانقطاع أنفاسي، فغادرت المقعد مهرولاً أبحث عن الحرية والضوء والاتساع.

-٥-

قررت أن أمنح نفسي تجربة الرغبة الحرة، فملأت عيني وحواسي الأخرى بصخب بغداد ولياليها الزاهرة فكانت التياترو (الملهى) إحدى المتع الأثيرة وجدت في مرابعها، ما لم أره في حياتي فالغناء والرقص، الطبل، والمزمار. أصوات تملأ المكان والناس هنا يتمايلون يميناً وشمالاً، وظفرت

وألقت الحملة العسكرية الثالثة الرعب في قلوب الأهالي، عندما اخترقت سبع طائرات مقاتلة وبصحبتها طائرات (الأباتشي) سماء المدينة، وهي تتناوب على شن غاراتها على الآمنين الذين فزعوا، وطفقوا يبحثون عن ملاذات آمنة. بعد أن أصبحت البيوت كالمقابر.

فيما تم إنزال جويّ على سطوح المنازل في الحملة الرابعة وقد فتح المظليون النار على السكان المدنيين، مما أصاب العديد منهم.

وكانت الحملة الخامسة التي أطلق عليها الأمريكان (السهم المضيء) والتي استمرت حوالي ثلاثة أشهر ابتداء من ١٧ تموز وحتى نهاية أيلول ٢٠٠٥، التي جرى على إثرها هجرة جماعية إلى (عانة) هي الأولى من نوعها في تاريخ المدينة فقد ارتحلت حوالي (٨٠٠) ثمانمائة عائلة جراء القصف الوحشي الذي استمر على مدى أربعة أيام متواصلة وتحولت المدينة (القرية) الصغيرة، إلى جبهة قتال مفتوحة بكل الأسلحة التي جربها الغزاة المعتدون على البلاد والعباد.

واستخدم القتلة ذات الأسلوب الصهيوني في فلسطين المحتلة، تفجير البيوت وهدم المساجد والمدارس ونسف المتاجر والأسواق وتجريف المزارع. وامتد ذراع الحملة الخامسة ليطوق المدينة من كافة الجهات ويشل الحياة فيها بالكامل، فلا أحد يدخل إليها، أو يخرج منها ومنع الحركة في عموم الطرق والمنافذ. وفرض حظر التجوال، واعتباره مفتوحاً في الليل والنهار، فأغلقت الأسواق، ومنع الوصول إلى المستشفى الوحيد، وتم قطع الماء والكهرباء عن المدينة.

رافق ذلك حملة بربرية جرى فيها مداهمة البيوت وتفتيش المنازل، واقتياد فتيان وشباب المدينة ما بين سن (١٥ – ٣٥) عاماً، ووضعهم قيد الحجز والاعتقال.

صوت حضيري أبو عزيز [1] هو الأثير إلى نفسي، فقد شغفت به حباً وإعجاباً، وولعت بعموم أغانيه ومواويله، وقد سحرتني أغنية:

"عمي يا بياع الورد.. كلي الورد بيش .. كلّي .. بالك تدوس على الورد وتسوي خله كلّي.."

وقد أصبح حضيري أبو عزيز موعداً ثابتاً يوم الخميس أنتظر قدومه بلهفة بالغة، فما إنْ ينتهي الدوام، وننصرف من معسكر الوشاش حتى أعدو إلى الشارع على عجل ومن ورائي القرويون الأربعة وهم يحاولون اللحاق بي إلى (مقهى ناصر حكيم) [2] في علاوي الحلة، نجلس نحن الخمسة على تختين متقابلين، نهز رؤوسنا طرباً. ونحن ندور مع (الاسطوانة) ونزدد "عم يا بياع الورد كلي الورد بي كلي".

ومن الغريب أن تبقى كلمات هذه الأغنية تطوف بخاطري إلى اليوم وقد تخطيت الثمانين، وكأني استشعر الأجواء الندية لكلمات حضيري أبو عزيز لأيام الشباب الأولى، التي تشرح الصدر بإيقاعها وأدائها.

وأتذكر الآن تماماً، بأننا كنا نطلب بصوت واحد أن يعيد صاحب المقهى "القوانة" [3] مجدداً، بمجرد أن تنتهي دورة الأغنية، لنجدد المتعة فنواصل مسراتنا. وما بين دورة وأخرى يتعين على زبائن المقهى احتساء – استكان – جديد من الشاي.

---

[1] من مطربي العراق الذي اشتهر بأداء اللون الريفي، وظل الصوت الأقرب إلى قلوب الناس وخاصة القرويين منهم منذ أواسط الثلاثينيات حتى نهاية الستينيات من القرن الماضي.

[2] تقع قرب علاوي الحلة في الكرخ وينسب اسمها إلى ناصر حكيم المطرب الريفي الذي أبدع في أداء ضرب من الغناء يسمى (الصُبي) المفعم بالشجن العميق. وقد أصبحت هذه المقهى وعلى مدى تأريخها بأنها ملتقى القرويين الذين يرغبون في سماع اللون الريفي الذي اختصت به مقهى ناصر حكيم.

[3] الاسطوانة التقليدية التي كانت توضع في جهاز الفرامفون قبل ظهور (الأشرطة الصوتية)، ولازال البعض يفضل استعمالها حتى اليوم.

-٨-

تتوالى يوميات الجندية بين الواجبات والتدريب، وصحبة صديقي الحصان، ورفقة القرويين الأربعة، والتردد على مقهى ناصر حكيم، ونزولي الرحمانية لزيارة بيت خالي عبد الجبار. والتطواف في ساحة السويدي (الشهداء)، ومراجعة كراج خزعل للوقوف على إخبار راوة وأهلها وسؤال القادمين منها لعلّ أحدهم يحمل خطاً أو مكتوباً من الأهل والأصحاب.

-٩-

لم أحظ بإجازة طويلة من المعسكر طوال سني خدمتي إلا مرة واحدة، فقد منحني الرئيس (النقيب) أحمد فؤاد إجازة أمدها ثلاثون يوماً تقديراً منه لانضباطي العسكري، ولقاء خدماتي في رعاية (حصانه).

"لا تسلني ما الذي كانت تعنيه مثل تلك الفرصة الذهبية التي تتاح أمامي للمرة الأولى، فقد شعرت بفرح غامر، إذ سأعود إلى بيت دخيل، إلى أهلي وأصدقائي، سأنزل النهر، وأجوب راوة من شرقها إلى غربها، وسأتجول في بيت طلاع، والخليج والهلالية، والزراشية [١] وقد أصل إلى (الخربية) وربما أعبر إلى الجزيرة. حزمت متاعي، بعد أن ابتعت بعض (الصوغات) الصغيرة لزوجتي وابنتي وأمين وبيت دخيل. اتجهت إلى (كراج خزعل) باحثاً عن حافلة إلى عانة، غير أني لم أجد أي واسطة للنقل، وقيل لي بأن من المحتمل أن تتوفر سيارة في المساء. ووجدت أن الأمر غير مضمون، فقد يطول انتظاري دون جدوى، فقررت السفر إلى الفلوجة [٢] أولاً، فظفرت

---

[١] الزراشية: إحدى مناطق البساتين غربي راوة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى (أردشير بن عانات) ملك الحضر، بعد أن اتخذها منتجعاً صيفياً له ولأفراد عائلته وحاشيته.

[٢] قضاء تابع لمحافظة الأنبار، وهي (الفلوجة) أشهر من أن تعرف، بعد أن أصبحت مركزاً رئيسياً-

بعربة (لوري) في الرمادي،[1] لكن السائق اعتذر عن (الصدر)، فلا مكان لي فيه، واشترط على أن أصعد إلى حوضها، فلم أجد غضاضة في ذلك وقبلت شرطه، فتسلقت العربة واتخذت مكاني في (السيباية). واستغرقت المسافة بين الرمادي وعانة حوالي ثماني ساعات، وقد أنزلتني عربة اللوري في السراي.[2]

إثر وصولي باشرت قطع المسافة الطويلة ماشياً صوب منطقة (رأس الغربي) [3] بدا المسير الليلي موحشاً ومديداً في الطريق (البراني).. وعند بيت الكحلي[4] شعرت بالإعياء وبأن خطواتي أثقلها النعاس ولم يعد بوسعي مواصلة السير، فأرخيت جسدي على حافة رصيف النهر بانتظار النهار، كيما أعبر الفرات في الصباح إلى الضفة الأخرى فخلدت للنوم.

أيقظتني شمس عانة الحانية، فأبصرت جمال الطبيعة الباذخ الألوان، فالشمس تنهض من النهر تمد نحو أفق العين خيوطاً من ذهب وحرير، زقزقة العصافير تنبئ بأن يوماً جديداً قد أتى فيمتلئ صدري بعبق الربيع وقداح البساتين.

لا شيء في الوجود يعادل المرابع والديار، أحسست وأنا على ضفة شاطئ (الشعبة)، كما لو أنني أولد من جديد، فطفقت أعدو منشرح الصدر مغتبطاً أحث الخطى جهة دار الأهل، وأنا في أشد الشوق للقاء زوجتي

للمقاومة الوطنية في مواجهة العدوان الأمريكي عام ٢٠٠٣، بل تعد في المرحلة الراهنة مدينة العرب الأولى بعد أن استطاع أبناؤها هزيمة جيش الولايات المتحدة في العديد من المعارك والمواجهات أو هي في ذاكرة العالم مدينة البطولة والصمود.

[1] مركز محافظة الأنبار تبعد عن مركز بغداد حوالي (١١٠) كيلو متر.

[2] مركز مدينة (عانة).

[3] إحدى محلات عانة الغربية تتميز بإطلالتها على الفرات وهواؤها عذب.

[4] إحدى محلات عانة.

وابنتي وأخي. الأيام الثلاثون تصبح كاللحظة العابرة، فقد تناثرت بين فرح العودة ومسامرة الأصحاب، والاستئناس بالأحبة، وزيارة الأهل، وشوق النهر والناعور و(عصاري) البساتين وتلبية الدعوات.

الغيبة واللهفة:

الأولى توقد في النفس أشواق اللحظة، واللهفة إيذان بالوصل والخلق والتكوين، بعد الخروج من عذاب الغربة.

لا أدري كيف انصرفت الأيام الثلاثون: فقد كنت أمضي النهار ما بين الضحى والظهر برفقة الأصدقاء في المقاهي، وعند حلول العصر نتمشى صوب (المغرب) إلى الهلالية بين البساتين. أما المساء فالتعاليل ذات المذاق العذب غالباً ما تعقد في بيت مطني العساف، فيما لازمني أخي أمين فكان يصحبني في الزيارات والدعوات.

لم أتناول في بيتنا طوال الأيام الثلاثين إلا وجبة الصباح، فيما كان علي تلبية دعوات الأهل والأقارب والأصدقاء في الغذاء والعشاء، ابتداء من بيت دخيل إلى بيت نعمان، إلى جوار الدعوات الأخرى، جميلة العمير، وجميل أبو سن، وعمر الحميد، وحمادي الحبيني، وكثيرون غيرهم.

-١٠-

عدت من قريتنا إلى بغداد ومذاق الأيام الحلوة يملأ نفسي، وقد نبئت فور وصولي معسكر الوشاش بخبر التسريح، إذ لم يبق على انقضاء الخدمة العسكرية إلا أياماً معدودات.

-١١-

حملتنا نحن الجند (قيد التسريح) عربة لوري متهالكة تدب على طريق ترابي ذي شقوق وأخاديد وحفر يزيد العربة وهْناً على وَهْنْ، اجتزنا مدينة

(بعقوبة) [١] المثقلة أشجارها بالليمون والبرتقال، ثم اتجهت العربة نحو (المقدادية)، [٢] مدينة أخرى لم أرها أو أسمع بها من قبل، توقفت العربة بأرض قفر جرداء، ذات فضاءات واسعة، وأمرنا أن نقيم فيها، فبادر الجند إلى نصب الخيام.

علماً بأن مجيئنا إلى هذه المنطقة لدواعي القيام بفرضية عسكرية، وهو تقليد عسكري يجري عادة قبيل التسريح.

عند حلول الليل، بدأت الفرضية فعالية قتالية تحت اسم (قرغان) توزع الجند زمراً انتشروا على (المواضع). وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً، شرعت المجاميع الحركة تجاه الأهداف المحددة لها.

وقد تواصلت الفعاليات العسكرية عشرة أيام، ولعل مشاقها الصعبة إن لم تزد فهي تعادل عاماً من الخدمة العسكرية. فاليوم الواحد تحسبه في حسابات التعب المرهق شهراً، بعد أن أخذت منا الأيام العشرة مأخذها، عطشاً وجوعاً، ونصباً.

-١٢-

تقضي تعليمات التسريح، إجراء فعالية الرمي بوصفها خاتمة الخدمة العسكرية. ومع خيوط الفجر الندية، حملتنا عربات الجيش إلى منطقة (أم الطبول) [٣] التي كانت في ذلك الوقت "ميدان الرمي". وبانقضاء هذه الفعالية وإتمامها، بلغنا رئيس عرفاء الوحدة، بأن نباشر بإجراءات التسريح في اليوم التالي، فكدنا نطير فرحاً فتعالت أصواتنا بالهوسات، الهتاف بحياة الملك غازي، على طول طريق العودة إلى معسكر الوشاش، وكل جندي منا

---

[١] بعقوبة تبعد حوالي ٥٠ كم عن بغداد، وهي مركز محافظة ديالي. تشتهر بوفرة أشجار الحمضيات ومنها البرتقال على وجه خاص واتخذت المحافظة البرتقال شعاراً لها.

[٢] المقدادية أحد أقضية محافظة ديالي.

[٣] منطقة أم الطبول التي كانت في الثلاثينات في الطرف القصيّ من بغداد تعد اليوم ضمن الحدود البلدية للعاصمة وهي آهلة بالسكان تجاور حيّ اليرموك وتطل على طريق المطار الدولي ويعد جامع (أم الطبول) أحد أبرز معالمها.

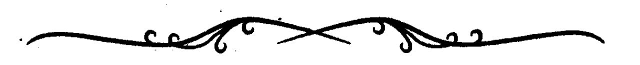
يهنئ زميله وهو في أشد حالات السعادة والفرح.

لذلك لم يعرف أحد من الجند الهجوع في تلك الليلة إلا لماماً، ونحن نتحدث بفرح عن الغد، وعن أحلامنا، وعودتنا إلى الأهل والديار، فيما تغير كل شيء في صباح اليوم التالي، إذ فوجئنا بصدور أمر عسكري يقضي التريث، وإرجاء التسريح إلى إشعار آخر. فأصابنا الإحباط، بدأ الزمن منذ تلك اللحظة يستحيل قلقاً مضنياً. ونحن نضرب أسداساً بأخماس، فالترقب والانتظار والأمر المجهول، والتأويلات والشائعات من حولنا جعلتنا في حيرة من أمرنا لاسيما بعد أن صار أمر التسريح قاب قوسين أو أدنى بعد أن كنا نمني النفس بالعودة إلى حياتنا المدنية الأولى.

ولم تطل الأيام بالأمر الغامض حتى انجلى ما وراءه، فقد علمنا بأن تأجيل التسريح يعود سببه إلى ما سمّيَ في حينه بـ (حركات شيخ بشتر)، ولم يكن هذا الحدث الطارئ، هو المفاجأة الوحيدة، التي أعاقت تسريحنا، بل تلاها فاجعة وطنية عظمى أشد إيلاماً على النفس من أي مصيبة سواها، ففي الوقت يوم ١٩٣٩/٤/٤ الذي أوشكنا فيه إنهاء إجراءات إتمام الخدمة العسكرية صدمنا بمصرع الملك المحبوب غازي!

ولا أظن أن بوسع كائن من كان وصف مشهد الأحزان العظيمة لهذا الرزء الذي أصاب العراقيين. فأي عبارة مهما كانت بليغة، لا يمكن لها الإحاطة بالمشهد المأساوي لهذا اليوم (الأسود) الذي يستحيل أن توجزه مقالة أو تلم بتفاصيله الأليمة الكلمات.

فقد تحول المعسكر كما بغداد كلها إثر إعلان النبأ المروع إلى كتل بشرية متفجرة بالهتاف والبكاء والعويل فيما كانت طرقات العاصمة وشوارعها تردد صدى النائحات وهن يندبن ويلطمن الوجوه والصدور. وعند رأس الجسر العتيق كانت الكرخ تضج بالهتاف والنواح. وأفواج الناس تتدفق من الجهات الأربع كسيل منهمر من غير انقطاع.



العودة إلى راوة

-١-

إثر انتهاء إجراءات التسريح غادرت إلى راوة التي هزني الشوق والحنين إليها، وبادرت فور وصولي البحث عن فرصة عمل تعينني على القيام بمسئولية بيتي وأهلي. غير أن شيوع الكساد وقلة الزاد ضاعفتا من وطأة البطالة التي تعم القرية أيقنت بعد أن أعياني البحث أنه من غير الممكن الحصول على شغل في ظل الظروف الاقتصادية المتردية القائمة.

ولم أجد مخرجاً من هذا المأزق إلا بالسفر إلى (حديثة) فعملت في اليوم التالي لوصولي لدى مقاول في شركة (كي ثري K ٣) كعامل أجير، غير أن الأجر لم يكن مجزياً، بالقياس إلى الجهد المبذول، وساعات الدوام المفتوح نهاراً ومساءً.

ورغم ذلك رضيت بالأجر المتواضع اضطراراً خشية من غائلة البطالة، إذ لا يوجد بديل آخر إلا العودة الخائبة إلى أهلي ملوماً محسوراً.

وبعد إلحاح مني ومن زملائي الراويين العاملين معي، وافق المقاول بعد مرور ما يزيد على العشرين يوماً من العمل لديه السماح لنا بالذهاب إلى ديارنا بعد الظهر من كل يوم خميس. وكنت أجمع (الدريهمات) القليلة وأدفع بها إلى مليكة كمصرف أسبوعي. وغالباً ما كنت أقتصد في مصروفي وأضغط نفقاتي الشخصية إلى أقصى حد، وإلا فإن الأجر الأسبوعي بكامله لا يكاد يقيم أود العائلة.

وفي إحدى زياراتي الأسبوعية إلى راوة فوجئت بقرار تعييني (عضواً) في المجلس البلدي للقرية، إلا أنني لم أمارس أي دور فيه كما لم يعهد لي بأية مهمة أو يجري تكليفي بشيء.

ما برح ذلك اليوم حياً في ذاكرتي، أستطيع إيراد تفاصيله الصغيرة على وجه تام، فعقب انصرافنا يوم الخميس، نزلنا إلى (الكراج) في (حديثة) ننتظر حافلة البريد المتجهة إلى عانة، وإذا بصوت يناديني بكلمة "أنت يا ولد.. يا ولد"، التفت إلى مصدر الصوت، فرأيت شيخاً وقوراً بلحية طويلة، ووجه مشرق مستدير ذي ثياب بيض، يعتمر عمامة بيضاء، وعندما دنوت منه، أشار قائلاً بلهجة شامية: "قل لصاحب المقهى أن يجلب لي شاياً"!

فجئ بـــ (الشاي) إليه فاحتساه على عجل وطلب (استكاناً) ثانياً وعندما وصلت حافلة البريد ركب الشيخ الوقور، فيما لم أحظ بمكان في الحافلة، فطلبت من السائق أن أركب متعلقاً بالباب، لكنه رفض في البداية، وعندما ألححت عليه بأن لا خوف عليّ، اضطر إلى الموافقة بعد أن أشهد الركاب بصوت عال وهو يقول: "يا جماعة هذا الولد يتحمل المسئولية عن أي حادث قد يتعرض له إذا سقط من السيارة في الطريق"... سارت الحافلة تشق طريقها بصعوبة في الأرض الوعرة وأنا متشبث في مكاني، وعند مشارف (الفحيمي) [1] توفر لي مقعد إلى جوار الشيخ الوقور الذي بادر بسؤالي "يا ولد من أين أنت"؟!

فأجبته: أنا من راوة! وأردف بسؤال آخر: من أيّ الراويين؟ قلت: من البوعبيد. عندها كف الشيخ عن الحديث، وظل طوال الرحلة صامتاً.

وعندما عبرنا بـــ (القطعة) إلى الضفة الأخرى، كانت عيناه تطوفان في أرجاء المكان، فقد توقف أمام مغارة (الدغدع). وأدار بصره متأملاً بساتين المذينب، ثم واصل طريقه وهو يدك الأرض بعصاه. وافترقنا عند بداية المسطاح، حيث نفذ إلى الزقاق المنحدر إلى الجامع الجواني.

---

[1] منطقة هضاب شمالي حديثة لم يكن فيها إلا بيوتاً قليلة متناثرة ومخفراً للشرطة.

في اليوم التالي (يوم الجمعة) فوجئت باعتلائه منبر الجامع خطيباً مفوهاً جهوري الصوت، ينتصب بقامته المديدة والمصلون، منشدون إليه مبهورون بفصاحته وبلاغة أسلوبه، التفت إليّ ساكن الحكيم قائلاً، (وكنت أجلس إلى جواره في المسجد): "ألا تعلم بأن هذا الشيخ ابن عمكم، وهو من بيت وروور"؟! [١]

عند انقضاء الصلاة اصطحبته ومظني إلى البيت وتناولنا طعام الغذاء على مائدة أبي أمين، وسط ترحاب الأهل وفرحة الأقارب بعودة الغائب الذي رجع إلى الديار بعد غيبة تزيد على الأربعين عاماً.

وبدأ الشيخ محمد السيّد هويدي، يقص علينا سرّ غيابه الطويل، ونحن نصغي بكل شغف وانتباه للوقائع والأحداث التي مرّ بها الشيخ في اغترابه عبر العقود الأربعة التي أمضاها بعيداً عن بلده، قال الشيخ محمد وهو يروي قصته:

"عندما كنت غلاماً لم يتجاوز عمري آنذاك الخامسة عشر وأنا أرعى الإبل في أرجاء البرية المترامية، أطوف بها الفيافي والقفار. وقبل أن يحل الليل تلتئم النياق والأباعر، وكنت أمضي أياماً وأسابيع في البادية قبل أن أعود إلى راوة. وفي يوم من الأيام، فر من القطيع بعير، اكتشفت غيابه في الصباح، بحثت عنه في مساحات شاسعة في أرجاء المناطق المجاورة فلم أجد له أثراً، وواصلت البحث مرات عديدة عن البعير النافر، ولكن دون جدوى. عندها فكرت ملياً، وتساءلت بيني وبين نفسي: ما العمل؟! هل أعود بالقطيع إلى راوة من غيره، أم أترك القطيع مكانه، وأعود مرة أخرى إلى مواصلة البحث؟!

كانت الأسئلة تلح عليّ، من غير أن أجد جواباً شافياً لها وخشيت إن عدت

---

[١] بيت وروور أحد فروع عشيرة البوعبيد.

إلى راوة من غير البعير، أن أثير غضب أهلي علي، فخفت من سوء العاقبة.

لذلك قررت أن أرود الصحراء لاستقصاء أثر البعير، وهكذا بدأت الرحلة الطويلة نحو المجهول. مرت علي الكثير من الأحداث، وواجهت المخاوف والأخطار، لكن إرادة البقاء والإصرار على البحث، كانتا تمدني بالعزم على المضي في طريقي، فقد جربت قساوة المناخ، وعضني الجوع، وأرهقني المسير، ونال مني التعب، وكدت أقضي عطشاً. بل وتعرضت حياتي مراراً للموت، وأنا أرى الذئاب تترصدني من مكان إلى مكان. وظللت أنقل خطواتي المتهالكة في الليالي الموحشة، وأحاول النوم داخل كهف أو تحت حجر أو في ظل شجرة بريّة. وقد تتاعت خطواتي، ولم أعد أعرف أين وبأيّ أرض أنا، ولا بأيّ طريق أمضي، ولا لأيّ مصير أتجه، أصبحت كما الريشة في مهب الريح لا أملك من أمر نفسي شيئاً، وليس من فرصة أمامي سوى أن أواصل المسير لعلّي أجد في طريقي أحداً، أو اهتدي إلى ملاذ آمن إلى أن رأيت ذات ليلة ضياء يشع من بعيد فضاعفت المسير نحوه. وقبيل أن يشق الفجر وجدت نفسي أمام مسجد صغير، فتوضأت وصليت مع الجموع. وكنت شبه محطم خائر القوى في حالة إعياء شديد وقد أبلت ثيابي، جائعاً، وعطشاناً، لم أقرب زاداً ولا ماءً إلا ما أصادفه أو أبحث عنه بين الحشائش والحصى.

وقد لفتت حالتي الرثة جموع المصلين الذين كانوا في المسجد، فأشفقوا عليّ، والتفوا حولي، وهم يسألوني عن أصلي وفصلي، وعن السبب الذي آل إليه حالي على هذا النحو البائس المثير للشفقة، وتدافعوا كل منهم يعرض على الضيافة، بعد أن سمعوا قصتي، فيما اقترح الشيخ أن أكون ضيفاً على المسجد، وهكذا أصبح المسجد ملاذاً وسكناً، علمت من القوم بأنني الآن في مدينة الزرقاء الأردنية بعد أن اجتزت الحدود ماشياً على قدمي، وأن رحلتي استغرقت ثلاثين يوماً. (١)

---

(١) أي أن الشيخ محمد قطع في رحلته مسافة تصل إلى ستمائة كيلو متراً.

وجدت بأن أفضل وسيلة لرد جميل هؤلاء الناس الذين رحبوا بي وأكرموا وفادتي، هو أن أقوم بخدمة المسجد، وهكذا شمرت عن ساعدي وشرعت في تنظيف وترتيب الحرم والباحات ورعاية الحديقة الصغيرة بالسقي والتشذيب، وبعد حوالي الشهرين كلفت برفع الآذان في الأوقات الخمسة، ودعاني إمام المسجد أن أحضر الدروس التي يلقيها عقب صلاة العصر والعشاء، ومنحني الكثير من وقته وهو يحثني على تعلم القراءة والكتابة التي لم أكن أعرف منهما شيئاً باستثناء الحروف التي تعلمتها في طفولتي بـ (الملا)..

ودارت الأيام، وانقضى على وجودي في مسجد الزرقاء ثلاث سنين، نلت خلالها شيئاً من علوم الفقه والتفسير، وأصبحت حسن الخط، وملماً إلماماً جيداً بالقراءة، وحين أقعد المرض الإمام ولزم الفراش أنابني في إمامة المصلين وإلقاء خطبة الجمعة، ولم تمض فترة طويلة إلا واعتمدتني دائرة الأوقاف الأردنية إماماً وخطيباً لمسجد الزرقاء الذي توليت إمامته قرابة عشرين عاماً شاع خلالها اسمي بين الناس بوصفي فقيهاً في علوم الدين. سافرت أثناءها إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج، ولم اعد مع الحجيج، فقد اشتاقت روحي إلى مجاورة البيت العتيق، والأنس بقرب المسجد النبوي الشريف، وكنت طوال تلك الفترة التي أمضيتها في الديار الحجازية موضع احترام وتقدير من علماء وفقهاء مكة والمدينة. وقد أمضيت عاماً كاملاً قبل أن أعود إلى الأردن لأفاجأ بأمر حكومي يقضي بنقلي إلى عمّان، ويعهد إليّ بوظيفة مستشار في دائرة الأوقاف، ثم دعيت إلى زيارة الملك عبد الله في قصره ومكتبه لمرات عديدة، وأصبحت قريباً منه، يبعث إلي فأجالسه مع ثلة من العلماء والشيوخ، وظل التواصل بيننا قائماً حتى برزت قضية فلسطين التي أثارت اهتمامي مثلما أثارت اهتمام عموم العرب، فأوليتها صوتي، ودعوت من على منابر مساجد العاصمة إلى الجهاد لمقاتلة الغاصبين ومحذراً

من مغبة التخاذل والتراخي من قبل بعض الحكومات العربية الضالعة في مؤامرة الصمت تجاه الحق العربي المهدد.

وفوجئت يوماً فور نزولي من المنبر في الجامع الكبير، من يطلب مني مرافقته، فاقتادني إلى التحقيق، احتجزت على إثرها، وجرى تقييد حريتي، ومنعت من الخطابة ولم أعد إليها إلا بعد مرور خمس سنوات. وفي عام ١٩٣٩ اعتبرتني الحكومة الأردنية حينذاك شخصاً غير مرغوب فيه، فجرى تسفيري بمصاحبة الشرطة إلى الحدود العراقية. وهاأنذا بينكم الآن بعد أن عدت إلى بلدي عقب مرور خمسة وأربعين عاماً أمضيتها في الأراضي الأردنية".

هكذا تحدث الحاج محمد السيد هويدي الذي أُضفيَ عليه إثر عودته إلى زاوة لقب (حاج البوعبيد)، بوصفه أقدم حاج في هذه العشيرة.

ويواصل عز الدين الحديث بقوله:

"لم تنته قصة الحاج محمد عند هذا الحد، بل بدأت بفصل آخر حيث حلّ ضيفاً في دار مطني العساف لفترة ليست قصيرة تزوج خلالها من السيدة نجيبة ابنة جاسم علي الخالد، وأعقب منها: (طه، إبراهيم، بهيجة، خديجة، لميعة) ونزل إلى بغداد،[1] باحثاً عن عمل، فاختار الدلالة مهنة له في أسواق الشورجة ومتاجرها، وقد كان له زبائن كثيرون من محافظة الأنبار على نحو خاص، وكان يتميز بهمته العالية، وبقدرة عجيبة على العمل المتواصل وبقي على حاله هذا حتى بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، لم يتخل عن مهنته، فتراه نشطاً، حيوياً، يدك الأرض بعصاه الغليظة وهو يشق طريقه في أسواق الشورجة.

[1] عقب نزوله إلى بغداد، أقام الحاج محمد في مناطق عدة في العاصمة، فاختار الكرخ ثم فرج الله في الرصافة. وكانت (البياع) هي محطته الأخيرة.

ومن مآثره الاجتماعية، متابعة الطلبة والدارسين من الأهل والأقارب والوقوف على مستوياتهم الدراسية ومراجعة إدارة المدارس، وتوبيخ المقصرين من التلاميذ. وكان جميل الخط، دقيقاً في أعداد بيانات الزبائن وتنظيم القوائم، والمفاصلة في أسعار السلع. وكان بليغ الكلام مثقفاً ملماً بالأحداث في المنطقة والعالم، عروبي الاتجاه والتفكير، وقد هزه العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فنظم قصيدة طويلة يدافع فيها عن حق مصر في تأميم القناة، ويشيد بزعامة جمال عبد الناصر وقيادته التحررية. وقد مرض في أخريات حياته، بعد أن بلغ من العمر عتياً، إذ تخطى العقد التاسع، وقيل أشرف على المائة.

ومهما يكن فإن صورة الحاج محمد السيد هويدي تظل ماثلة في الذاكرة، الثياب البيض، والعصا الغليظة، الوجه الأبيض النضير، واللحية الطويلة البيضاء، والشعر الأشقر على شكل جدائل، إذ أطلقها قد تصل إلى ظهره وتلك اللهجة (الأردنية) التي ظل لسانه ينطق بها إلى آخر يوم من عمره.

-٣-

انقضى عام وأنا أتردد بين راوة وحديثة، عاملاً أجيراً لدى المقاول في (كي ثري)، لم أدخر طوال اثنى عشرة شهراً أي قدر من المال، وقد صدق المثل القائل (من الجدوم للزردوم)، [١] وفي الوقت الذي بدأت فيه أفكر في ترك الشركة والبحث عن عمل آخر. وإذا بـــ (نوري الرحيم) [٢] يطرق باب الدار حاملاً رسالة، وهو يقول: "جاءك مكتوب من بغداد". جاء فيه:

(ولدي عز الدين، أول السؤال عن صحتكم الغالية وطيب خاطركم علينا

---

[١] مثل شعبي محلي يضرب على الناتج الضئيل من الأجر الذي لا يكاد يسدّ الحاجة اليومية.

[٢] نوري الرحيم أحد أصدقاء عز الدين في مرحلتي الصبا والشباب.

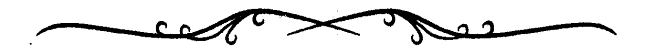
إذا تسأل عنها فنحن بخير ولا يهمنا سوى فراقكم عنا، أطلب منك أن تأتي إلى بغداد اليوم قبل (باجر) [١] لتعمل في خان الحاج مهدي المولى)

خالك عبد الجبار الطه

حملت النبأ إلى مطني العساف، للاستئناس برأيه [٢] فحثني على تلبية طلب خالي بأسرع وقت، إذ يرى بأن مثل هذه الفرصة السانحة، قد تكون فاتحة خير وعلي أن أغتنمها.

-٤-

بعد أن تحدثت مع مليكة وأبي أمين، قررت السفر إلى بغداد في اليوم التالي، بعد أن وجدت بأن استمراري في الشركة ليس من ورائه فائدة أو جدوى، كما أن بقائي بلا عمل في راوة أمر مهين، إذ أن رقة الحال وضيق ذات اليد، ونفاذ المدخرات المالية المتواضعة والبطالة السائدة في القرية، تجعلني أقبل بعرض خالي ولا أتردد فيه؛ لمواجهة متطلبات المعيشة، وكنت قد عرضت الأمر على زوجتي التي شق عليها في البداية مشروع سفري مرة أخرى، بعد أن أخذتني الخدمة العسكرية بعيداً عنها وعن ابنتي ألمازة، لكنها لم تتخل عن مؤازرتي بل باركت هذه الخطوة، لكنها طلبت مني أن أرسل في طلبها حال قرار الإقامة الدائمية في بغداد.



---

[١] باجر: مفردة عراقية تعني (الغد).

[٢] كثيراً ما كان عز الدين يستأنس برأي مطني العساف ويستشيره في الأمور المهمة، فقد سبق له أن وقف على رأيه في موضوع (الزواج) لذلك وجد عز الدين بأن (العمل في بغداد) ومفارقة الأهل في رحلة قد تطول أيامها مسألة في غاية الأهمية عليه لابد أن يعرض الأمر على ابن عمه مطني بوصفه الأب الروحي.

الرحيل إلى بغداد

-١-

عبرت النهر صوب (رأس الغربي) مع الضياء الأول، واتخذت مقعدي في حافلة البريد، المتجهة إلى الرمادي، ومن هناك ركبت عربة أخرى إلى بغداد، وصلت العاصمة التي لم أكن غريباً فيها أو عليها هذه المرة، بعد أن أمضيت في مرابعها سنوات الخدمة العسكرية في معسكر الوشاش.

وبعد أن أنزلتني العربة في علاوي الحلة،[١] اجتزت المسافة ماشياً إلى بيت خالي في الرحمانية[٢] وعندما دخلت عليهم التفّ من حولي مهدي وهادي وهدية [٣] فرحين بقدومي، بعد الانتهاء من العشاء الذي أعدته فتحية تحدث إلي خالي باقتضاب عن الخان والعمل.

-٢-

في صباح اليوم التالي، صحبني خالي عبد الجبار إلى سوق الشورجة، وقبيل الضحى أطل مهدي المولى [٤] رجلاً ممتلئاً مديد القامة، مهيباً، اتخذ مكانه في مكتبه الصغير الذي يقع في صدر الخان، وأشار إليَّ بعد أن صافحني وسلم علي أن أجلس على كرسي بجواره، رمقني بنظر نفاذة وهو يشعل سيجارته التي يبدو أنها لا تفارق شفتيه، بدأ الرجل ذو العينين الزرقاوين يلقي علي أسئلة متعاقبة، وأنا أجيبه بحياء ووجل، وكان واضحاً

---

[١] إحدى مناطق بغداد المعروفة وهي مركز النقل والمواصلات بين المحافظات الجنوبية.

[٢] منطقة شعبية في الكرخ وردت الإشارة إليها في الصفحات الآنفة.

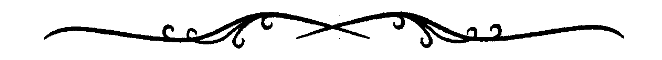
[٣] أولاد الحاج عبد الجبار الطه (خال عز الدين) وهم على التوالي: مهدي، هدية، هادي، صبحي، غنية، يحي، صبيحة، محمد، نجاة.

[٤] مهدي صالح نجم المولى الراوي (١٩٠٠ – ١٩٨٢) ولد وعاش وتوفي في بغداد، يعدّ وولده فاروق من أعلام التجارة في العراق.

بأنه على بينة تامة بأصلي وفصلي، يعرف كل تفاصيل حياتي.

وخَلَدَتْ في سمعي كلمة أعادها وكررها ثلاث مرات: "الأمانة، الأمانة، الأمانة". وكان أول أسئلته، فيما إذا كنت أقيم الصلاة في أوقاتها؟ وعندما أجبته بالإيجاب، توقف برهة قبل أن يواصل الأسئلة الأخرى، وأوصاني بأن من تعهد إليه حراسة الخان، فلابد أن يكون يقظاً على الدوام، مثل الطير الحرّ لا تفوته واردة أو شاردة.

ولم يدر بخلدي بأن تلك اللحظة التي التقيت فيها مهدي صالح الراوي ستكون بداية رحلة طويلة معه وإلى جواره ستمتد أربعين عاماً أو تزيد. وظلت كلمة (الأمانة) التي ألقاها علي صاحب الخان هاجساً يلازمني طوال حياتي.



سوق الشورجة (١٩٤٠ — ١٩٨٥)

خان الأغا الكبير

(١٩٤٠ — ١٩٥٧)

— ١ —

باشرت عملي في نفس اليوم الذي وضعت فيه خطوتي الأولى في خان الأغا الكبير ذي الحجرات العشرين، الذي يمور بالحركة منذ الضحى وإلى ما بعد غروب الشمس.

أفاض خالي الشرح بتفاصيل الشغل الذي عليَّ القيام به يومياً، ويشمل بذل كل الجهد، في دوام مفتوح مستمر، فأنا منذ اليوم معنيّ بمسئولية حراسة الخان في الليل، وعليَّ أن أبيت بداخله، وأن أتفقد الأموال والبضائع المودعة في الدكاكين والحجرات، وأن أتأكد من إغلاق الباب الرئيسي، وأتفحص الأقفال وأن أقوم بإيداع وترتيب بضائع المترددين على الخان من الزبائن والمتسوقين وأن أحفظها في الأماكن المخصصة لها، ثم يلي ذلك مرحلة تعبئة بضائع الزبائن في صناديق مناسبة، وبعد ذلك يجري نقلها إلى الكراجات.

وقد حاولت القيام بكل هذه المهام بالتزام وأمانة، بل قمت بأكثر من ذلك، فقد تولّيت ولأكثر من مرة حمل الصناديق على ظهري، لاسيما في السنة الأولى، ولم أشعر لا في ذلك الوقت ولا الآن بأن مثل هذا العمل يمكن أن ينتقص من كرامتي أو يمسّ سمعة أولادي أو يسيء إليها سواء في حياتي أو بعد رحيلي لأني كنت على الدوام أؤمن بيقين مؤكد بقيمة العمل الحر الشريف؛ لذلك لا أرى أيّ حرج من ذكر هذه الحقيقة. فمنزلة الإنسان لا تعلو

أو تنخفض بنوع المهنة، رفيعة كانت أم متواضعة تاجراً كان صاحبها أم حمالاً، وأن المعيار الأخلاقي هو الذي يحدد قيمة الإنسان من خلال حسن المعاملة والسلوك القويم والنفس النزاعة للخير. والصلة الحميمة بالناس، وبهذه القيم تتعيّن منزلته في الحياة والمجتمع.

-٢-

يبتدئ طريق سوق الشورجة من جامع مرجان [١] على الجانب الأيسر لشارع الرشيد [٢] ويأخذ السوق امتداداً عرضياً نحو شارع الجمهورية [٣] الذي اخترقه عند إنشائه من الموضع القريب من جامع الخلفاء [٤] المعروفة مئذنته بـ (منارة سوق الغزل) [٥] وتطل نهاية السوق على شارع غازي،[٦] وبذلك يكون هذا السوق التراثي العريق مطلاً على ثلاثة شوارع هي (الرشيد، الجمهورية، غازي). ويقول أبي: الذي عاصر السوق منذ نهاية الثلاثينات في القرن العشرين، إن الشورجة الحقيقية ليست هي التي نراها اليوم، إنما هي التي تبدأ من شارع غازي وتنتهي بشارع الرشيد. [٧]

قيل أن أول إشارة تاريخية إلى سوق الشورجة وردت في القرن السابع عشر الميلادي، عندما أتى الرحالة التركي (أوليا جلبي)، على ذكر بعض محلات بغداد، ومن بينها سوق الشورجة الذي ازدهرت فيه التجارة بأنواعها، الحبوب، الفواكه، المواد الزجاجية والخزفية، الفافون (التوتياء)، وغيرها، إلى

---

[١] جامع تراثي لازال قائماً حتى اليوم.

[٢] يعد الرشيد الشارع الرئيسي في العاصمة وقد افتتح عام ١٩١٢.

[٣] شق عام ١٩٥٥ واكتمل عام ١٩٥٧ وسمّي لاحقاً بشارع الخلفاء.

[٤] جامع تراثي.

[٥] أحد أسواق بغداد التراثية ولا يزال ينبض بالحركة حتى اليوم.

[٦] يمتد من الباب الشرقي وينتهي بباب المعظم.

[٧] راجع باسم عبد الحميد حمودي. شارع الرشيد. وزارة الثقافة. بغداد ٢٠٠٢.

جانب محلات مختصة بسلع أخرى منها:

العطارية، القرطاسية، الخيوط، التوابل، القماجي، السبح، الخرز، المعاضد، المرايا، الفواكه المجففة، ورق السجائر، الشموع، الحلويات، الحباب، والأباريق، التمر، الشخاط، الصابون، الحصران، الأجبان، الملابس الداخلية. (١)

أما أبرز تجار السوق في ذلك الوقت:

آل الحسني، آل العطار، آل حمرة، آل شطب، آل مبارك، عقراوي، آل الرحيم، آل الشماع، المراياتي، مهدي صالح الراوي، مهدي عبد الجبار طه الراوي. (٢)

ومن بين الخانات الأكثر شهرة: جني مراد، الدجاج، لالة الصغير، الأغا الكبير، الأغا الصغير.

وسوق الشورجة كما هو شأنه أيام زمان يجسد لدى البغداديين عموماً التواصل الحي بين عراقة الماضي وحرارة الحاضر، بنكهة التراث الأصيل، وهو أثير لديهم، محبب إلى نفوسهم لارتباط اسمه بأجمل المناسبات ذات النكهة الشعبية التي تتجسد فيها تقاليدهم الاجتماعية، فليس هناك من بيت بغدادي إلا واغترف من سوق الشورجة (المؤونة) الخاصة بأكلات شهر رمضان، الذي يعدُ هذا السوق المعين الرئيس له، وليست هناك صينية بغدادية توقد الشموع في يوم (زكريا) إلا وكانت محتوّياتها من الحلويات والسكر والسمسم والكرزات والشموع منتقاة من الشورجة، بالإضافة إلى ما يوفره السوق من مستلزمات الأعياد وطقوس الخطبة والختان والأعراس. (٣)

---

(١) رفعت مرهون الصفار: محلات بغداد القديمة. وزارة الثقافة. بغداد.

(٢) راجع الصفار: مصدر سابق ص ٢٥ وما يليها.

(٣) لا يزال سوق الشورجة حتى اليوم السوق الأول في بغداد.

وقائع خان الأغا الكبير:

تعود ملكيته العقارية إلى عائلة القشطيني البغدادية،[1] كان موقعه في الأصل، وسط سوق الشورجة حتى عام ١٩٥٧ قبل أن يشق شارع الجمهورية (الخلفاء)، الذي اقتلع الخان وابتلع مساحته بالكامل، ولم يعد له أي أثر منذ ذلك التاريخ بعد أن تجاوز عمره قرناً من الزمان.

لخان الأغا الكبير باب عملاقة شبيهة بالأبواب العباسية عظيمة الحجم وذات وزن ثقيل، ذات جناحين، وثمة بوابة صغيرة تتسع لرجل تقع أسفل جناحها الأيمن، لم يكن الخان مجرد مركز تجاري للبيع والشراء، فحسب، بل يعد لدى أصحابه والمترددين عليه من الزبائن والمتسوقين، بمثابة مجتمع متجانس منسجم طبقاً لأخلاقيات وتقاليد السوق العريق، إذ كان القائمون عليه يزنون الكلمة بميزان عدل عهداً ووعداً.

والقيم التي كانت سائدة في السوق آنذاك هي قيم الضمير اليقظ، وليست بورصة انتهاز الفرص، القائمة على الغش والتحايل، والكسب غير المشروع والتي بدأت تشيع للأسف في أيامنا هذه.

فيما كانت التقاليد تشترط تسعيرة محددة، متفق عليها سلفاً لا يجوز لأحد أن يتلاعب فيها تحت أي ظرف من الظروف وأن تكون نسبة الأرباح مناسبة ومعقولة. كذلك الحال في عرض السلع وتسويق المنتجات، فلا تعرف الشورجة ومراكزها التجارية المعروفة في ذلك الوقت ظاهرة التلاعب بالأسعار أو اللجوء إلى الغش التجاري.

ومن الصعب أن تسمع أن تاجراً معروفاً نكث عهداً أو تخلى عن وعد

[1] من الأسر البغدادية.

فالاتفاق له حرمة وقداسة وأن الغالب في أجراء المعاملات هو الكلمة دون حاجة إلى أوراق ثبوتية أو شهود. فالبديل كان الثقة دائماً.

يتألف الخان من طابقين تنحدر إلى حوضه بخمس سلمات، أي أنه ينخفض عن مستوى سطح السوق بحوالي مترين. يضم عشرة محلات تجارية تسوّق سلعاً متنوعة، يختص كل محل منها بصنف معين.

كالخردوات، الألبسة الخفيفة، الأدوية، المعلبات، العطارة، القماجي، المرايا، الليف، ورق السجائر (الشام، الرشيد، البافرة) الشخاط السويدي (علامة النجمات الثلاث).

فيما يشتمل الطابق الثاني على عشر حجرات واسعة، يشغل أربعاً منها الدّلال [1] والوكيل والتاجر والمسوّق. وخصصت الحجرات الست الأخرى كورّش لصناعة المرايا ومخازن للبضائع المستوردة.

وفي السطح (العالي) دورة مياه مخصصة للعاملين في الخان والمترددين عليه من الزبائن، وأصحاب المحلات المجاورة لقضاء حاجتهم، وتزدحم عند الظهيرة قبيل الصلاة. وعلى الجانب الأيمن من السطح الوسيع يبرّد مصطفى السقا مياه الشرب في (حباب) مخصوصة وكلما فرغت جرّة يعود ليملأها مجدداً من الحباب وينزل بها السوق، يسقي الناس ماءً (جلاباً) [2] على حد ندائه، حاملاً بيديه – طاستين– من نحاس، يضرب الواحدة بالأخرى فتحدثان صوتاً إيقاعياً متناغماً يلفت الانتباه، فيقبل العطاشى عليه.

ومصطفى السقا أحد شخصيات خان الأغا الكبير، بل يعد علاقة بارزة من معالم الشورجة في ذلك الزمان، أمضى سنوات طويلة من حياته في السقاية، ولم يكف عن مزاولة مهنته حتى بعد أن بلغ من العمر عتياً، فقد ظل مثابراً

---

[1] الدلال: الوسيط التجاري.

[2] جلاب: بارد.

ودؤوباً وعندما باشرت الدولة العمل بشارع الجمهورية، غاب مصطفى السقا في زحام المدينة. [1]

كان شاحباً ونحيلاً، ذا وجه صغير وعينين ضيقتين، ولحية بيضاء كالثلج، يحمل جرته الندية على ظهره وهو يشق طريقه في طرقات الشورجة، منادياً: "ماء جلاب".

* * *

يزود الحاج مهدي صالح الراوي العراق في جهاته الأربع بورق سيجاير الشام والرشيد [2] بوصفه الوكيل الوحيد المعتمد لشركة صبحي وصلاح الدين الشوربجي في حلب، إلى جوار سلعة أساسية أخرى هي (شخاط أبو النجمة) السويدي الصنع، الذي اختص به الحاج أيضاً.

أما البضاعة الأخرى التي اشتهر بتصنيعها وإنتاجها خان الأغا الكبير فهي (القماجي والمرايا). وهي مهنة عريقة اختص بها عبد الأمير القماجي، وقد توارثها الأبناء والأحفاد، وبرع فيها ابنه إبراهيم وأولاده الذين لا يزالون حتى يومنا هذا يواصلون إنتاج هذه السلعة.

ويعد عبد الأمير اسم له دلالته في السوق، يعتمر (جراوية) [3] بغدادية لا تفارق رأسه بوصفها جزءاً من لباسه الشعبي، وكان يقيم في محلة (الفناهرة) [4] في باب الشيخ [5] أمضى فيها مراحل حياته بكل دوراتها، حتى وفاته.

ويكنى بأبي سلمان أما أولاده فهم: إبراهيم، محمد، جاسم، وجبار،

---

[1] مصطفى السقا: أصله من راوة، ولد وعاش وتوفي في بغداد عن عمر ناهز التسعين.

[2] لوقت قريب ظل هذا النوع من الورق متداولاً في أسواق بغداد.

[3] من الأزياء البغدادية الشعبية، قلّ استعمالها في الوقت الحاضر عبارة عن (يشماغ) يلفّ على الرأس عدة لفات.

[4] من محلات بغداد العريقة لم يبق إلا اسمها بعد أن أزالتها الشوارع الجديدة في الستينات.

[5] منطقة بغدادية قديمة في جانب الرصافة. نسبة إلى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

يعاونونه، ويأخذون على يديه في إدارة محلاته الأربعة والإشراف على ورش صناعة القماجي والمرايا في الطابق الثاني من الخان.

ولم يكن أحد ينافس عبد الأمير في صناعته المتميّزة من حيث الجودة والإتقان واعتدال الأسعار.

ومن تجار الخان السيد محمد حسن النجفي، الذي اتخذ من حجرة في الطابق الثاني مكتباً للاستيراد والتسويق، وقد كرس نشاطه التجاري في ميدان "لعب الأطفال" وقد حظي السيد طوال وجوده في خان الأغا باحترام وتقدير الجميع كان هادئاً، سلساً كما النسمة الطيبة، وحين سألته يوماً لم اختار هذا الصنف من التجارة دون غيره؟

أجاب السيد بأنها بضاعة نظيفة لا تحتمل الغش!

ومن التجار اليهود في خان الأغا الكبير:

الأخوان اسحق وموشي، اللذان رفضا مغادرة العراق، في حملة تسفير اليهود، فتم ترحيلهما قسراً، اختص الأخوان في استيراد وبيع الخيوط لأشهر الماركات الشائعة في الأربعينات وهي ماركة (الزنجيل) إيماءة إلى المتانة والجودة. وفي نهاية الأربعينات افتتح اسحق لولده (جميل) محلاً في الخان لبيع الأغذية المعلبة التي بدأ الطلب يتزايد عليها في تلك الفترة.

يقول أبي:

"من مآثر إسحاق التي أستذكرها الآن هي يوم قررت عام ١٩٤٩ البحث عن منزل صغير مناسب لا يتجاوز ثمنه عن المبلغ الذي أدخره وهو (٦٥٠) ستمائة وخمسون ديناراً. ولكني لم أجد بيتاً بمثل هذا السعر. فقررت صرف النظر ريثما تتوفر فرصة أخرى، وعندما علم إسحق بهذا الأمر طلب مني أن أرافقه إلى بيت يملكه في محلة القشل. [1]

---

[1] محلة بغدادية مجاورة للشورجة، أقام فيها الكثير من اليهود وكان فيها (توراة)، من معالمها جامع

وقد وقع البيت في قلبي فور دخولي باحته، وبالرغم من قدم بنايته، إلا أن سعته وربازته والشناشيل الباذخة، جعلتني أقرر على عجل شراءه، دون أن أعلم بالثمن المقرر. فبادرني إسحق قائلاً:

"ما المبلغ الذي بحوزتك وتستطيع أن تدفعه الآن؟!". فأجبته: كل مدخراتي هي مبلغ ستمائة وخمسون ديناراً، فصاحفني وهو يقول (مبروك) ويبقى بذمتك مبلغ (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسون ديناراً، تدفعها أقساطاً أو كلما تيسر لديك جزءاً منها، إلى أن يتم تسديد المبلغ، وبوسعك الانتقال إلى الدار هذا اليوم.

لم يكد ينتهي إسحاق من كلامه، حتى طفقت إلى الكرخ فرحاً أبشر مليكة بالخير السعيد، شعرت أن غبطة مدهشة تسري في كياني كله، وأنا أقتطف مثل هذه الثمرة العظيمة بعد عشر سنوات من العناء والتعب.

وهي الدار التي ضمتنا في رحابها عقداً من الزمن (١٩٥٠ - ١٩٦٠) وعلى حد قول مليكة، فإننا وجدنا في عتبتها خيراً عميماً، ورزقاً طيباً من الثمرات والأولاد، إذ شهدت الدار ولادة محمود ،عبد الكريم، سهيلة، ساهرة".

ثمة أربعة دكاكين تتوزع بغير انتظام على جانبي رواق الخان الذي ينتهي بدكان مهدي عبد الجبار، المخصص لبيع الخردوات والأغذية المعلبة وبعض أصناف الأدوية، وكان من أكثر المحلات تنوعاً في البضائع، إذ يجد فيه المتسوقون الآتون من محافظات العراق المختلفة معظم المواد التي يحتاجونها. وقد عرف مهدي عبد الجبار بدماثة خلقه وحسن معاملته للزبائن، وبأسعاره المتهاودة.

وعلى الطرف الأيمن محل الخال عبد الجبار الطه الذي كان عبارة عن

(المصلوب) ودار العلامة الدكتور مصطفى جواد، وعيادة الدكتور كمال السامرائي.

سقيفة محكمة شيدها بنفسه، كانت بضاعته خليطاً من السلع، تبدأ بـ (الفوانيس) و (البريمزات) وأشرطة فتائل (اللمبات) وورق السجائر والشخاط و(الجويت) و(اللاستيك) و(قند السكر) وغيرها.

وانفرد ناجي شوحيط الذي يتخذ من حجرة تقع على يسار الرواق ببيع الملابس الداخلية والجواريب محلية وأجنبية الصنع. ومن عادة هذا الرجل الحاذق أن يسأل الزبون ممازحاً عن المنطقة التي يقيم فيها، ليعرف مستوى المعيشة ونسبة التطور، ليحدد نوعية البضاعة وقيمتها السعرية، وكثيراً ما كان يمزح مع الزبائن ويداعبهم، فيقول مثلا:

إن هذا النوع من الجواريب لا يمكن أن يقاوم أكثر من يومين، ولكن لدي نوع آخر، أردأ من الأول وأقل مقاومة منه، يهترئ قبيل الشروع بعبور الجسر العتيق.

وقد عرف الخان ولأول مرة في تاريخه "العطاريات" بعد أن باشر كل من طه السامرائي وعبد الرحمن عبد الجليل العمل بهذا النوع من المواد في العام ١٩٥٣. وقد خصص لمحلهما والمخزن الملحق به، جزءاً من الجناح الأيمن في الخان، وقد عانينا لوقت طويل من روائح المواد، النفاذة وروائحها المنفرة، مع ما تثيره من ضيق في الصدر وما تتسبب فيه من حساسية في الحنجرة والأنف.

أما الحاج مهدي صالح الراوي، فهو صاحب الخان والتاجر الأول والأثقل وزناً وصاحب الكلمة الأولى فيه، ورث التجارة عن أبيه (صالح المولى)، عمل في بداية حياته معلماً في قطاع التعليم الابتدائي، وكانت مدرسة العوينة في محلة جامع المصلوب آخر المدارس التي عمل فيها، ثم تخلى عن وظيفته الحكومية، متفرغاً للتجارة، ويعد واحداً من أعلام سوق الشورجة منذ الأربعينات حتى الثمانينات من القرن الماضي.

وقد اقترن باسمه ورق الشام والرشيد والشخاط والشاي السيلاني ماركة (اللمبة).

وقد تولى ابنه البكر (فاروق الراوي) منذ صباه دور المساعد والنائب والوكيل، ليصبح في الستينات من الوجوه المعروفة في السوق والبنوك، وقد استطاع توسيع وتطوير تجارة أبيه، وقد أكسبته علاقته الإنسانية الحميمة بالناس مكاناً متميزاً في قلوب جميع من اقترب منه أو تعامل معه، فقد كان رجلاً محباً للخير كريم اليد والقلب واللسان.

وهناك العديد من الأسماء ممن تواجدوا في خان الأغا الكبير، أو عملوا معنا بصفة عمال ومساعدين، جاءوا من القرى البعيدة عرباً وأكراداً، تعاقبوا على مر الأيام، ومن هؤلاء:

حسين العاني، مناع حسين، عبد الله الضايع، حسين الحتحوتي، صلاح الدين، صباح شويش، أسعد دنهاش، طه الشلال، عبد الله، غلام، بابير.

وكثيرون غيرهم، ممن عاشوا معنا زمناً، إخواناً وأصدقاء، يأكلون مما نأكل دونما فصل أو تمييز، وأن مبدأ توزيع العمل داخل الخان (بين التاجر والخانجي والدلال والعمال) يقوم على سبيل التصنيف المهني، وليس طبقياً. وأن عدداً كبيراً من أصحاب الأموال والتجارة بدأوا حياتهم في السوق عمالاً وأجراء، وبعضهم كان (حمالاً) حتى أن واحداً من هؤلاء ظل وفياً لمهنته الأولى، واحتفظ بـــ (الجندة) [1] التي كان يضعها على ظهره، في صدر (دكانه) اعترافاً شجاعاً منه أمام النفس والناس.

لذلك كانت العلاقة الاجتماعية مع هؤلاء العمال تقوم على الرعاية

---

[1] حشّية من الألياف وقطع بالية من السجاد. يضعها الحمالون على ظهورهم عند نقل الأحمال والصناديق الثقيلة.

والاحترام ومكافأة تعبهم اليومي بما يستحقون، مما وفر إحساساً إنسانياً بالرضى، وليس هذا فقط، بل أن كثيراً من تجار الشورجة وفر لعماله فرص عمل مواتية لرفع مستوياتهم الاقتصادية والمعيشية وعقب عشر سنوات من العمل المثابر، لم يعد الحمال حمالاً، بل أصبح بائعاً، ثم وكيلاً وأحياناً تاجراً.

فقد افتتح بعضهم متاجر ومحلات، وامتلك آخرون أراضٍ وعقارات.

* * *

خالي عبد الجبار وأنا نتولى معاً مهمة المحافظة على الخان، تحت إشراف الحاج مهدي صالح، وتقع عليَّ مسئولية الحراسة، فهناك الودائع والأموال والبضائع التي تمتلئ بها المخازن والمحلات، لم يفارقني الإحساس بثقل الأمانة وضرورات التحسب لأيّ طارئ، أو خطر يحيق، فكنت لا ألبث في فراشي طويلاً، بعد أن يفرّ من عيني النوم، فأنهض مذعوراً، أتفقد الأموال والأحوال، وأجول بين الأروقة والحجرات، وأفتش السطح، وأعود لأتأكد من إحكام الأقفال.

وتتوالى نوبات الفحص والتحقق من الكوى والأبواب، ولا يأتيني النوم إلا بعد الهزيع الأخير من الليل، وعندما يحل الفجر أدرك بأن يوماً جديداً قد أتى. وعند الانتهاء من أداء فرض صلاة الفجر أحاول أن أحظى بغفوة تعينني على العمل.

أتناول الفطور بعجالة لأظفر بمتعة تدخين (النارجيلة) التي كنت أعدها المتعة الأثيرة في حياتي "في مقهى الشط، وأعود قبيل الساعة الثامنة فاشرع بفتح باب الخان.

أول القادمين يكون في العادة خالي وابنه مهدي، يليه عبد الأمير وأولاده الذين يهمون بسرعة في تنظيم معروضات محلاتهم. ثم يرد أصحاب المحلات الأخرى بالتوالي، ناجي، إسحق، السيد محمد حسن.

يطلّ الحاج مهدي في ميقاته المعلوم، فهو لا يتأخر عن الساعة التاسعة صباح كل يوم.

وفي العاشرة تبدأ حركة الشورجة، فتسمع صرير الأبواب، وصدى الأقفال، وبعد حين تكتظ السوق بالآتين والوافدين من بغداد والمحافظات الأخرى، وفي الحادية عشرة يمتلئ حوض الشورجة بالمارة والمتسوقين وأصحاب البسطات، وبطابور العربات الصغيرة وعند الظهيرة تبلغ الحركة ذروتها، وفي موسم الصيف يخف الزحام في القيلولة بخلاف الشتاء الذي يتواصل فيه إقبال الناس وتدفق الزبائن والمتسوقين. وقبيل العصر يعود الوافدون من حيث أتوا، ويباشر أصحاب الدكاكين (التعزيلة) تدريجياً، حتى إذا حل المغرب تهدأ السوق، ويتوقف الضجيج.

وأشد حالات الازدحام في الشورجة تكون عادة بداية الأسبوع، وبداية الشهور عند استلام الرواتب والأجور. يحاول مناع حسين المعروف آنذاك بخفة ظله، وبميله العجيب للمرح أن يلطّف أجواء خان الأغا الكبير بين حين وحين، خاصة عندما يكون الحاج مهدي غائباً، أو نائماً وقت القيلولة، فيقوم مناع بسلسلة من الحركات البهلوانية التي لا يجيدها أحد غيره مثل المشي على يديه وجذعه مرفوعاً إلى الأعلى. وقد يقلد العقرب في مشيتها. ثم يأخذ بتقليد أصوات بعض الزبائن والتجار الذين يترددون على الخان.

وقد يلجأ إلى ألعاب الخفة، كأن يحتسي الشاي بطريقة مقلوبة، أو يرفع صندوقاً بأطراف أصابعه، ولا يكف عن إلقاء الطرائف والنوادر كلما وجد فرصة سانحة أمامه.

وبسبب رشاقته الجسدية وحيويته النشطة، فإنه لا يتردد في عقد حلقة مصارعة مع زملائه العاملين في الخان، على سبيل استعراض القوة البدنية.

وقد أفردنا لمناع وزوجته حجرة في دارنا بالقشل، وظل مقيماً بيننا لفترة

زمنية ليست قصيرة. ويعد خسار وهو شقيق مناع، شخصية مرحة أيضاً، كان كثير التردد على الخان وقد يتواجد فيه أحياناً، وله (بسطة) متنقلة ليس له مكاناً ثابتاً، وقد اختص أيامها ببيع صحون زجاجية (غير قابلة للكسر). والتي شاع استعمالها بين الناس في ذلك الوقت، وكان خسار يتفنن في أساليب عرض بضاعته على نحو يجذب أنظار المترددين على السوق. فيبادر أولاً إلى مزماره يعزف عليه لحناً شعبياً أو أغنية متداولة بين الناس.

ولغرض الإمعان في إبهار الزبائن، فهو يعزف بـــ (أنفه)، وليس بفمه، ويظل كذلك، حتى يلتف من حوله جمع غفير، عندها يقوم بالخطوة التالية، وهو يعدد بصوته المجروح ذي البحة القوية مزايا الصحون ومقاومتها الفريدة للكسر تحت أي ضغط مهما كان شديداً، فيضع الصحون صفاً واحداً على الأرض بمسافة من ثلاثة إلى خمسة أمتار، ثم يلتفت إلى من حوله من الحاضرين، وهو يرفع صوته المتحشرج، بأن الأوان قد حان لاختبار صلابة البضاعة، وقبيل الشروع بالاختبار يشير إلى قدميه، وهو ينتعل (بسطالا) ضخماً ثقيلاً خصيصاً لهذا الغرض.

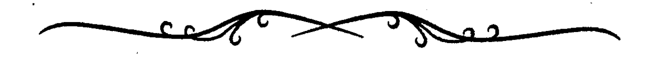
ويهتف بالمتفرجين: أرجوكم قارنوا بين رقة الصحون وصلابة البسطال. ويبدأ خسار يمشي بكل ثقة فوق صفوف الصحون المتراصة ذهاباً وإياباً، بخطوات وئيدة مرة، وسريعة مرة أخرى، وعند الانتهاء من التجربة يعلو تصفيق المتفرجين، فيقبل الناس على شراء البضاعة.

وقد حدث يوماً أن مازحه أحد أصحابه فاستبدل الصحون المضادة للكسر بأخرى شبيهة لها ولكنها من الزجاج العادي، وغافله قبيل العرض الاحتفالي، فكانت النتيجة دراما من الدرجة الأولى، فقد تحطمت الصحون عن آخرها.

وعندما فطن خسار للعبة، قال لجمهور المتفرجين "بعد أن رأيتم الأواني القديمة كيف تتحطم عليَّ الآن أن أعرض الآن الصحون المقاومة لكل الصدمات".

وقد أصبح هذا العرض من تقاليد يوم الجمعة في شارع الرشيد، يقام أمام (أورزدي باك). [1]

كان خسار إنساناً وديعاً وفناناً مبدعاً لا يجاريه أحد في عزف الناي، ورغم فقره ورقة حاله، فقد كان كريماً مبسوط اليد، ومن أقواله المأثورة: "عش الدنيا بحلوها ومرها، وحياة رخية بلا تعب أو شقاء لا قيمة لها، وعليك أن تصرف ما في جيبك، فإنك ستجد ما تأكله في اليوم التالي ولا تصدق من يقول القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، فإنها وصية البخيل، والصحيح اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب".



[1] مخزن كبير شبيه بالسوبر ماركت في أيامنا الآن.

أيام الكرخ

(١٩٤٠ — ١٩٥٠)

في أخريات عام ١٩٤٠، جاءني مكتوب على لسان مليكة تخبرني فيه بأن (الصوغة) والدنانير الخمسة التي بعثت بهما وصلتا عن طريق (جميل أبو سن)، [١] وقد ملأت البيت بـــ (المجيل) [٢] وتنتظر تحديد موعد قدومها إلى بغداد.

لم تزد (مكاتيبي) التي أرسلتها لاحقاً، عن كل ما يشغل القروي الغائب عن دنياه الأولى، فأول الأسئلة هو معرفة الأخبار والوقوف على الأحوال، والوعد بجمع الشمل في أقرب وقت.

في بداية عام ١٩٤١، وصلت مليكة بغداد وانضمت وألمازة إلى عائلة خالي في الرحمانية، وكنا قد بدأنا البحث عن دار أخرى تتسع للأسرة الكبيرة، سرعان ما عثرنا عليها في الدهدوانة [٣] فانتقلت العائلتان من الرحمانية إلى (سوق الجديد) [٤] في طرف باوردة[٥] جوار بيت (الزيبق). [٦]

بدت الحياة هانئة، ودافئة، فقد أحسست لأول مرة بالاستقرار العائلي، وبأن مشاق العمل وتعب النهار والساعات الطوال في الشورجة أصبح لها مذاق آخر، رغم ظروف الحرب ومعاناة التموين.

أشفق علي خالي بعد أن أمضيت مدة طويلة في الإقامة الليلية بالخان، فقرر أن يشاطرني الحراسة بين ليلة وليلة.

---

[١] جميل محمد أبو سن من الأصدقاء المقربين.

[٢] خزين من المواد الغذائية الجافة.

[٣] هضبة مرتفعة وهي إحدى أطراف سوق الجديد.

[٤] إحدى محلات الكرخ الشهيرة.

[٥] نسبة إلى (كلبة) تدعى بارودة.

[٦] من العوائل الكرخية المعروفة.

وهكذا وجدت ولأول مرة متسعاً من الوقت أمضيه بين البيت ومقاهي الفحامة، وكأني أطل على الحياة وأتعرف عليها من جديد أو لأول مرة، ووجدت متعة كبرى في مجالسة شباب المنطقة ومخالطتهم، بعد أن أصبح للمقهى وقت محدد والتسري فيها عادة أحرص عليها ثلاثة أيام في الأسبوع.

في بداية خريف العام نفسه (١٩٤١)، أعلن خالي بأن ثمة دار أفضل من الدار الحالية، تقع في الفحامة،[١] أكثر سعة من الدار الحالية، فانحدرنا من الدهدوانة إلى الدار الأخرى التي يمتلكها عبود الظاهر [٢] الواقعة في دربونة (زنكو)، [٣] التي اشتق اسمها إثر حادثة لا تخلو من الطرافة، فقد جاء في الأخبار المتداولة على ألسنة القدامى من الشيوخ والعجائز: "أن جملاً محملاً بـ (الملح) ولج لدربونة ذات يوم يعود تاريخه إلى بداية القرن العشرين، فزنق جسده بين جدرانها الضيقة، وحاول صاحبه الأعرابي والناس من حوله تحرير الجمل من (زنقته) إلا أن محاولاتهم ذهبت هباءً، فلم يعد بوسع الأعرابي إلا أن ينحره في المكان نفسه، ويبيعه لحماً". قيل منذ تلك الحادثة علق اسم "زنكو" بالدربونة، وبه أصبحت تعرف.

تضم زنكو أحد عشر بيتاً يقطنها ست عشرة عائلة:

- علي ناصر الدويج
- علي العكلة ويقيم في داره عائلات:
  - حميد الغناش
  - زكية الكردية وزوجها عمران العزاوي
  - سبتي وزوجته خدوجة وابنهما فليفل

---

[١] سميت بالفحامة لاشتهار المحلة بتصنيع وإنتاج وتسويق الفحم، وهي إحدى محلات الكرخ الكبيرة ذات الكثافة السكانية العالية.

[٢] عبود الظاهر العبيدي من سكان الفحامة.

[٣] من أطراف الفحامة.

- الحاج مشمش العبيدي وعائلة ولده جميل
- عبد الجبار الطه وعز الدين محمود
- نورة أم خالد القدسي
- إبراهيم الجرمط وزوجته ملكة
- زيدان خلف الجنابي
- بطوشة وزوجها الصكلاوي
- حفصة (أم مجيد)
- حمدة النعيمي وزوجها جمال.

قال الراوي:

وأهل الدربونة بسطاء طيبون، ينتمون إلى شريحة اجتماعية متقاربة المستويات في الدخول والهموم. وزنكو مثل غيرها من الدربونات البغدادية العريقة، [1] وضعت يدها على السر العظيم وهو المحبة التي ترفرف على قلوب الفقراء والأتقياء الصانعة للخيرات ولكل الفضائل الإنسانية: التواضع، الشهامة، البساطة، النخوة، التواضع، الشيمة، الكرم، التواصل الإنساني، التكافل الاجتماعي، المشاركة في السراء والضراء.

فالأرزاء التي تصيب داراً في الدربونة، تحل بالدور الأخرى؛ لذلك صار الحال واحداً وقسمة مشتركة بين الجميع من أول بيت حتى آخر بيت. وطبقاً لهذا المبدأ الأخلاقي، فإن الصدق الانفعالي هو ذاته في أحوال الفرج ومراسيم الغبطة، كما في النازلات والأحزان.

في أول الليل يطل الأصدقاء، عبد الله الكاظم[2] يهتدف وينادي من وراء

---

[1] راجع عبد الستار الراوي. فردوس الكرخ، بغداد ٢٠٠٠.

[2] عبد الله الكاظم الدليمي من وجوه الفحامة، ويُدعى (أبو عبد الواحد) وهو الصديق الأقرب إلى قلب عز الدين.

الباب "عز الدين يا عز الدين"، فيما يجيء نداء جميل المشمش [١] من السطح المجاور، كلا الرجلين يحثان أبي الخروج على عجل للالتحاق بهما، فقد حان وقت المقهى، فينهض أبي مسرعاً.

وفي مقهى أحمد الكاظم تلتئم (لمة) الأصحاب: كاظم الجميلة[٢]، عبد الرزاق العبود، [٣] إسماعيل وإبراهيم الحليوة، [٤] محمد جواد،[٥] يمضون الليل بين لعبة النرد والنارجيلة، وتبادل الأحاديث وسماع الطرف المتداولة.

يقول أبي "تمتد التعلولة ساعات دون أن نشعر بالزمن، ونحن متكئون على (التخوت)، [٦] نتداول شئون الدنيا، الحرب والتموين والسوق".

"ويختتم الأحاديث عبد الله الكاظم، وهو يروي كعادته واحدة من القصص التي تدور أحداثها بين مضارب القبائل وعرب الصحراء. وظل الصديق أبو عبد الواحد يمد في ليالينا بساطاً سحرياً وهو يحلق بنا في كل ليلة في فضاءات الأمكنة والأزمان البعيدة".

ولعل عبد الله الكاظم من الرواة القلائل الذين ملأ نفوسنا بكل تلك البهجة والإبهار.

وقد أتاحت مقاهي الفحامة العديدة التي كان يتردد عليها أبي الخروج من العزلة الطويلة الأمد التي أمضاها في ليالي الخان.

---

[١] جميل مشمش العبيدي: جار وصديق، عمل في الزراعة، وفي تجارة الخيل، أولاده أسعد، سعود، نزار، ربيع، مزهر، محمد، سعدية وضويّة، ظل على صلة بعز الدين حتى وفاته.

[٢] ويدعى (أبو غازي) يدير محلاً لبيع التبغ والتنباك ويقيم في نفس الطرف.

[٣] ويلقب (أبو مجيد) يقيم في دربونة زنكو.

[٤] بيت (حليوة) من بيوتات الفحامة المعروفة ولهم فيها (ماكينة طحين).

[٥] هو شيخ المعدان ويكنى (أبو عبد الله).

[٦] مفردها تخت: أريكة.

يقول عز الدين:

أدركت وأنا أصغي إلى الأحاديث المتبادلة بين أصدقاء المقهى (التي لا تكاد تنتهي في آخر الليل، حتى تعاود اتصالاتها في الليالي اللاحقة) أقول أكتشف ألواناً كثيرة من الطباع والأذواق والعقول، ولم يكن بوسعي مجاراة هذا الوسط إلا بفضيلة الإصغاء ومحاولة التعلم.

ولذلك أخذت أقبل بشوق عظيم على حضور تلك المجالس التي يعقدها كبار السن والشيوخ في زاوية مقهى علي، [١] ومقهى أحمد الكاظم، [٢] وأبو ماشة، [٣] تلك المجالس الغنيّة التي يتصدرها الحاج مشمش، [٤] عبود الكسار، [٥] أحمد صكير، [٦] السيد حسين الفتحي، [٧] علوان العبيد، [٨] أحمد المعيوف، [٩] وآخرون يمثّلون الصف الأول من وجهاء الفحامة.

يقول أبي: "وفي الفحامة رزقت بولدي البكر عبد الستار ولد في خريف ١٩٤١ على يدّ القابلة هوية الحالوب، [١٠] ويوم جاء إلى الدنيا كانت زنكو منشغلة بهموم الوطن، وبأخبار الحرب وببطاقات التموين، والجدل الدائر

---

[١] موقعها قرب خان المواصيل في الفحامة.

[٢] مجاورة لطرف (المعدان).

[٣] موقعها قبالة دربونة (الحصانة).

[٤] من وجوه الفحامة وكان شيخاً كبير السن ويكنى (أبو جميل) وله في الفحامة (خان) يعرف باسمه، ومارس تجارة الخيل، وكان بحوزته حصان اسمه (تاج الملوك) كان مشهوراً في زمانه.

[٥] عبود الكسار العزاوي من وجوه الفحامة ومن ذوي (الرأي) فيها.

[٦] أحمد صكير، أصله من نجد، من رجالات المحلة المعروفين.

[٧] السيد حسين فتحي الراوي (حلاق وختّان) ويمارب طبابة الأسنان، والأعشاب الطبية، عرف بحكمته وتقواه وسخائه.

[٨] من وجوه المحلة.

[٩] من وجوه المحلة.

[١٠] من أشهر القابلات في زمانها ولا ينافسها إلا جميلة (أم كاظم).

حول الآثار المؤسفة التي خلفتها (دكه) رشيد عالي وراءها".[١]

ويحدثني أبي قائلاً: "كنت في طفولتك وصباك شقياً ومغامراً فقد جربت العبث بالكبريت، فأوقدت النار في حجرة الأمتعة وكدت تحرق نفسك، وأويت جرواً صغيراً من وراء ظهري، وألقيت الحجارة والعصا في البئر، بل وأسقطت دجاجة حية فيها في غفلة من أهل الدار، وخضت مياه دجلة لوحدك، وكدت تموت غرقاً، وأحدثت (الكسارات) [٢] التي عدوت إليها وشاركت صبية الفحامة فيها كان من جرائها جروحاً بليغة في رأسك ووجهك، وظل واحداً منها نازفاً لم يعالجه الطبيب إلا بمشقة بالغة.

واخترقت حرمة حمام شامي للنساء [٣] وأنت لم تتعد الثامنة. [٤] وتمردت يوماً على معلمك (ملا حماد). [٥] ولم تتخل عن مغامراتك إلا بعد أن استقر بك المقام في مدرسة الزوراء".[٦]

يقول الراوي: "أرأيت نخلة سامقة أوهنها القدم؟! تلك كانت باب دارنا في زنكو! عريقة وطاعنة معاً. مرت عليها الأزمنة الطويلة، فانبثت فيها الثقوب والشروخ والأوجاع، تبين من تحت جلدها العتيق ظلال باهتة من الحناء وقمر الدين.

عندما نلج الدار يأخذنا مجاز طويل وكأنه يمتد إلى الخلود. تدور العين في أرجاء الباحة، فيبهرك التشكيل الشرقي الأخّاذ. بعد أن أضفت ذائقة العمارة

---

(١) إشارة إلى حركة آيار ١٩٤١ التي قادها رشيد عالي الكيلاني.

(٢) الكسارات جمع كسار وهو (مكاسرة) بين فريقين تتم بوسيلة (المعجال) أي: المقلاع لرمي الحجارة والحصى، في إيذاء متبادل. وكان من عادة صبية الفحامة أن يشنوا بين فترة وأخرى هجومهم على محلة المنصورية التي تقع وراء محلة (الدوريين) جوار الشيخ معروف.

(٣) من أقدم الحمامات في الكرخ إذ يرقى تأريخ إنشائه إلى القرن السادس عشر.

(٤) راجع عبد الستار الراوي قمر الكرخ (قيد الطبع) ٢٠٠٥.

(٥) ملا حماد الراوي أشهر شيوخ (الكتاتيب) في الكرخ، فقد علم أجيالاً عديدة القراءة والكتابة، وتلاوة القرآن الكريم في مسجده المعروف (إسماعيل كتخدا) جوار سوق حمادة.

(٦) أسست عام ١٩٣٢ وهي من أقدم المدارس في سوق الجديد.

البغدادية الأصيلة قبسات بهية من روحها على المكان، تألقت بها الإنشاءات الحميمة البالغة الحنو في اتساق دافئ بين اللبن والأجر وجذوع النخل والحصران. تواصل سخي ما بين السقوف والعقود والحنيات والأقواس والشبابيك الملونة.

تطل على (الفناء) الفسيح المشغول بالفرشي الأصفر حجرتان متجاورتان: يشغل الأولى خال أبي وعائلته، والأخرى أصغر حجماً تضمنا نحن أبي وأمي وأختي وسعد وأنا، علق على جدرانها فانوس صغير، وصورة باهتة و(عليجة) القرآن. في الشتاءات الباردة توصد أمي باب الحجرة، اتقاء الريح ولسعات البرد، يلوذ أفراد العائلة، بمنقلة النار، ثم تجئ فاطمة،[1] فنرود برفقة أحاديثها العذبة وحكاياتها الممتعة آماد الليل.

وعند اشتداد الهاجرة في الصيف تنبسط على الأرض (باريات) [2] القصب تحت أفياء (الطارمة) الندية، وقد نأوي في أوقات القيلولة إلى مسرب الهواء الناعم (البادكير). [3]

ونسقي ماء (جلابا) [4] قطراته كالزلال تترشح تباعاً من تحت (الحب) [5]، في (الناقوط) [6] ثمة حجرة ثالثة في أقصى الزاوية اليسرى، آوت في

---

[1] فاطمة صالح الدخيل، ابنة عم عز الدين، أعقبت فتحية وسليمة، عاشت حياتها زاهدة في الدنيا، تصوم الدهر، لم يفتها فرض صلاة منذ طفولتها الأولى، تؤمن بأن العالم كله خير، وأن حب الناس والوقوف على حاجتهم هو الأجر الأعظم ملأت طفولتنا قصصاً وحكايات كثيرة يمتد حديثها على امتداد ليالي الشتاء الباردة. تصفها أمي بأنها سيدة مكشوف عنها الحجاب، شديدة الإيمان والتقوى، قيل أنها حددت مسبقاً ميقات رحيلها وساعة وفاتها.

[2] جمع بارية وهي (الحصيرة).

[3] مسرب هواء ذو فتحتين الأولى على الفضاء الخارجي، والفتحة الثانية في الحجرة، وهو أسلوب ابتكرته الهندسة البغدادية لتكييف الهواء وتبريده في فصل الصيف.

[4] الجلاب: البارد.

[5] وعاء كبير من الفخار لتبريد الماء.

[6] إناء فخاري صغير.

الأربعينات شيخوخة (بريسم) [١]، وانغمرت عقب وفاته بالأمتعة والضيوف.

يرقد (التنور) قبالة المجاز تتناوب عليه أمي وعمتي فتحية، وليس ببعيد عنه بئر البيت، ذكر الناس من أهل الفحامة والجيران عنها قصصاً وحكايات، وسمعنا أمراً عجباً، إذ قالت المرحومة فطومة:[٢] "يخرج من هذي البئر ملك صالح، جميل الطلعة، بهي القسمات، يلبس ثوباً أبيضاً فضفاضاً، يتوضأ ويصلي فرض الفجر ثم يعود من حيث أتى، ينزل قاع البئر ويغيب".

لم يكن في دارنا ما يدعي بـــ (المطبخ)، إلا بعدما قضت الحاجة اليومية بضرورة أن يفرد ركن خاص لطهي الطعام، فاتخذت عمتي من سقيفة السلم الحجري مكاناً تعارفنا عليه بعد حين بأنه (المطبخ) الذي اتسع للقدور والأواني، والمعدات الأخرى إلا من (السلبجة) [٣] والإبريق النحاسيين فقد بقيا في مكانهما عند باب حجرة الضيوف.

الكرسي والسرير والأريكة والطاولة: أربع حاجات ظلت غائبة في دار زنكو. فلم يجرب أحد من أهلنا أن يتناول طعاماً على طاولة أو يجلس على كرسي، أو يتكئ على أريكة، أو ينام على السرير، فالأرض وحدها كانت كافية لأن تكون مائدة، ومتكئاً وفراشاً، فتلتئم العائلة حول صينية نحاسية يفترشون الأرض على حشيات وطيئة مريحة.

كانت حجرات الدار تضاء بالفانوس و(اللبمة)، [٤] وبقى الأمر على هذا الحال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، قبل أن تدخل المصابيح الكهربائية حياتنا.

---

[١] رجل هرم قيل تجاوز عمره قرناً من الزمان، يعمل بستانياً، له دراية واسعة بفصائل الورد والزهور وبأنواع الأشجار، كان قاصاً عجيباً، وجليساً ممتعاً له معرفة بتأريخ الفحامة وبيوتاتها وحكاياتها.

[٢] فطومة الظاهر العبيدي: أم أسعد وزوجة جميل المشمش.

[٣] وعاء نحاسي عميق نسبياً يستخدم كمغسلة لأيدي الضيوف بعد أن يصب الماء من الإبريق، والكلمة تركية الأصل.

[٤] الكلمة انكليزية المنشأ، عن كلمة ***Lamp*** وهي (السراج) النفطي.

أما الماء فتأتينا به سكنة،[1] وانتظرنا طويلاً قبل أن تمتد خطوط الإسالة وتنصب الحنفيات. وكان (الحمام) متنقلاً. ففي الشتاء نستحم في (الطشت) [2] في الحجرة الثالثة، وتحت السلم الحجري في الصيف.

وحين أطلّتْ علينا الحداثة أو اقتربنا من منجزاتها، هللنا ورقصنا فرحين، صبحي ويحي وألمازة وغنية وأنا، بعد أن أصبح في حوزة الدار ثلاثة كنوز: صندوق الثلج الذي عزفت عن تناول الماء منه فاطمة بوصفه يضر الصحة ويتلف الأسنان. راديو (سيرا) [3]، يبث كلاماً وموسيقى يطربنا بمنولوجات عزيز علي[4] وأغاني صديقة الملاية [5] وسهام رفقي [6] وقد احتفى أهلنا والجيران بـــ (الراديون) [7] الجهاز المثير للعجب.

تقول أمي: "بقيت لأيام وفتحية نتحفظ عندما نمر بالقرب من الراديو خشية أن يرانا أحد من الرجال الذين يتحدثون فيه".

تلا الراديو مروحة (ماريللا) [8] حيث أعدّ لها العم عبد الجبار قاعدة مخصوصة، واحتشدنا جميعاً قبالتها نلتمس نسمات باردة ناعمة.



---

(1) امرأة من الفحامة تقوم بـــ (سقاية) البيوت والمزروعات البيتية.

(2) وعاء كبير واسع ومفتوح مصنوع من معدن النحاس أو التوتياء، يستخدم في العادة لغسل الملابس.

(3) ماركة تجارية ذات منشأ إيطالي كانت شائعة في تلك الأيام.

(4) فنان قدير حاز على ثقافة رفيعة في الموسيقى والأدب. عمل في السلك الدبلوماسي واشتهر واختص بالمونولوج ذي الطابع الاجتماعي والسياسي، وكان يكتب ويلحن أغانيه بنفسه. يعدّ واحداً من رجالات التنوير في العراق الحديث من خلال مضامين مونولوجاته التي كان يدعو فيها إلى العلم والعقلانية ومناهضة الخرافات واقتلاع العادات الذميمة واستبدالها بقيم راقية، إلى جوار صوته اليعربي القومي الذي يدعو إلى الوحدة العربية والحرية والعدالة والاستقلال.

(5) صوت عراقي مفعم بالشجن والأحزان.

(6) صوت لبناني حنون.

(7) اللفظة الشعبية لجهاز (الراديو).

(8) ماركة تجارية إيطالية المنشأ.

وقائع الأربعينات

(١٩٤٠ — ١٩٥٠)

-١-

ما الذي مرّ في حياة عز الدين محمود خلال السنوات العشر من العقد الرابع منذ أن التحق بخان الأغا الكبير، وحتى نهاية الأربعينات، يقول أبي: "أول لقب مهني أطلق عليَّ خلال عملي في خان الأغا الكبير هو (الخانجي) وبهذا اللقب عرفني الناس، بعد أن اقترن باسمي وظل كذلك منذ بداية الأربعينات.

وفي العام ١٩٤٠ وهو التأريخ الذي باشرت فيه عملي في الخان، جرت أحداث ما سمي في حينه بـ (الفرهود) [١] الذي اختلطت فيه الأمورَ خلطاً عجيباً، فقد شاعت في هذا اليوم الفوضى، التي من الصعب الحديث عن وقائعها بعجالة أو بكلمات قصار، ولكن من المهم التأكيد بأن كثيراً من الأحداث المأساوية التي وقعت، كانت مرتبة سلفاً وأن عدداً منها أمر دبّر بليل لدواعي وأغراض سياسية.

-٢-

في السنوات الخمس الأولى (١٩٤٠ - ١٩٤٥)، انفتحت أمامي أبواب الرزق من مصادر عدة فإلى جانب مردودات (الخانجية)، وحصتي في دكان خالي عبد الجبار، فقد حاولت ممارسة بيع وشراء ورق السيجاير. مما مكنني من ادخار مبلغ وجدته كافياً لأن أجرب الخطوة التالية وهي الاتجار بالمواد

---

[١] لفظة تركية تعني أعمال الشغب المصاحبة للتخريب والسرقة.

المهربة فعمدت إلى شراء كمية من ورق السجاير (القجغ) [1] الذي كان محظوراً تداوله (بيعاً وشراءً) خارج التعريفة الجمركية الحكومية وقتذاك، وكانت هذه الخطوة التي تنقصها الخبرة الكافية أول وأخطر مغامرة قمت بها في حياتي، فقد كلفتني كل ما لدي من مدخرات، وكدت أتعرض بسببها للسجن، بعد أن تم وضع اليد على البضاعة من قبل الشرطة السرية وجرى مصادرتها.

وهكذا ضاعت فرصة مضاعفة الأموال التي ادخرتها خلال خمس سنوات من العمل المضني، مما جعلني أكف عن معاودة التجربة بهذه الكيفية التي تشبه (المقامرة) إلى حد كبير أو مثل من يضع البيض كله بسلة واحدة؛ ولذلك عمدت إلى أسلوب آخر أقل خطورة، وأدنى تكلفة، بعيداً عن الشرطة وفي منأى عن عيونها السرية.

فقد لجأت إلى وسيلة مبتكرة في تسويق (القجغ) وتضليل الرقابة بطريقة لا تثير الشك، وهي وضع المادة التي يراد تهريبها في قاع السلال والزنانيل الصغيرة، فيما نضع فوقها أنواعاً من الفاكهة والثمرات وقد استمر العمل بهذا الأسلوب لمدة ليست قصيرة .

-٣-

وجربنا في الأربعينات الاستثمار في الفنادق فقدت عهدت لأخي أمين الذي قدم إلى بغداد من راوة نهاية عام ١٩٤٦ إدارة فندق الروضة وتلاه، فندق العامري، ثم فندق شط الفرات.

وجميعها في شارع عبد الإله – القاهرة – في الكرخ، غير أن تجربة الفنادق الثلاثة لم تأت أكلها كما كنا نأمل من ورائها؛ ولعل السبب في ذلك

---

[1] لفظة تركية وفارسية تعني: (التهريب).

يعود إلى حداثة سن أمين إذ كان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل عمره، فضلاً عن بداية خبرته الإدارية التي كانت تتطلب في كل الأحوال، إشرافاً مستمراً ومتابعة متصلة.

فيما بقي أخي مولعاً بالفنادق، فقد عاد واستثمر فندق (فايق) [1] في شارع الرشيد، واشتركنا معاً مرة أخرى في فندق (تاج الكرخ). [2]

-٤-

طلب الحاج مهدي صالح الراوي، مني أن أرشح له رجلاً مستقيماً وأميناً ليتولى العمل في (ترسيم) ورق الرشيد والشام، الذي من شأنه أن يدر مالاً وفيراً، فآثرت (أمين)، وحين: سألني لماذا أمين بالذات؟! قلت له: إنه أخي، وأكفله بنفسي.

-٥-

وحدث في الأربعينات ما لم يخطر على بال أحد فقد فاجأنا ابن خالي مهدي عام ١٩٤٨، الالتحاق بسرايا المجاهدين، للقتال في فلسطين ولم يكن في ذلك الوقت قد تجاوز الثامنة عشر من عمره، وقد رضخ الجميع لمشيئته وقراره، إذ بلغت الحماسة ذروتها بين الناس، وأصبح التطوع شرفاً عظيماً لا يدانيه أي مقام.

وقد أقامت الفحامة تتقدمها دربونة زنكو ما يشبه المهرجان، وهم يودعون مهدي الذي ارتدى ثياب المجاهدين وأمضى ثلاثة أشهر مجاهداً في فلسطين وعاود التطوع مرة أخرى عام ١٩٥٦ للدفاع عن عروبة مصر ضد العدوان الثلاثي الأثيم، بعد أن أصبحت بورسعيد مدينة العرب الأولى في قتالها البطولي للغزاة.

---

[1] منطقة المربعة.

[2] شارع القاهرة.

-٦-

وفي المدة الواقعة بين عام ١٩٤٠ و ١٩٥٠ أصبح عبد الله الكاظم ومحمد جواد شيخ المعدان وإسماعيل الحليوة من أقرب الأصدقاء الذين أجالسهم في المقهى إلى جوار رجال الفحامة الآخرين جميل المشمش، كاظم الجميلة، زيدان الخلف، إبراهيم الحليوة، وعبد الرزاق العبود. وأذكر أن (أبا عبد الله) [1] اقتيد يوماً إلى السجن، إثر معركة بينه وبين عشيرة أخرى من المعدان، وجاءني عبد الله الكاظم إلى الخان في الشورجة يدعوني إلى المعاونة في أمر الشيخ، فصحبته إلى المحامي أحمد الراوي، الذي تمكن من إطلاق سراحه، وقد دفعت من جيبي الخاص مبلغ (عشرة دنانير) للمحامي، وقد عد أبو عبد الله أن ما قمت به ديناً كبيراً يطوق عنقه بالامتنان طوال حياته، فأخذ يبعث صباح كل يوم، صينية (قيمر) إلى دارنا. وظل على هذه الحال، إلى أن رجوته أن يتوقف عن ذلك؛ لأن ما قمت به ليس إلا واجباً اقتضته الصداقة.

-٧-

وفد إلى دارنا، خلال الأربعينات عشرات من الأهل والأقارب ممن نزلوا بغداد لأول مرة، تلتمس الغالبية منهم العرض على أطباء بغداد أو مراجعة المستشفيات وكانت الحجرة الثالثة المخصصة للضيوف تضيق أحياناً فالبعض منهم يصطحب معه العائلة بكل أفرادها، ويتطلب الأمر مرافقة المرضى، ذهاباً وإياباً، وقد أنيطت هذه المسئولية بولديّ خالي مهدي وهادي، وقد يتطوع الحاج محمد (حاج البوعبيد) بهذه المهمة عندما يجد لديه وقتاً لذلك.

فيما يخص مجيء الأهل، كالعمام والخوال، فالدار بكل حجراتها تكون

---

[1] محمد جواد شيخ المعدان في الفحامة.

مشرعة أمامهم بوصفهم جزءاً من أهل البيت. وكانوا في العادة موضع ترحاب مستديم، فيما يعد مجيء فاطمة يوماً مشهوداً لدى الجميع والأولاد تلك المرأة الورعة التقية.

يقول الراوي: "ملأت فاطمة طفولتنا قصصاً وحلوى، أفاضت على عالمنا الصغير معرفة بالبدو والصحراء وحكايات الأولين، يمتد حديثها على مدى الليالي، بأسلوب عذب وعبارة موحية، وذاكرة يقظة، تشدنا إليها دوماً، فنلوذ بها (ألمازة وغنية وصبحي ويحي وأنا)، في الأمسيات الشتائية الباردة، ونحن نحتضن (منقلة) النار. زودتنا فاطمة وأيقظت خيالنا، بعادات الأقوام وتقاليد القبائل ومشاهد ملونة مفعمة بالخير والجمال وعذوبة الإيثار".

-٨-

نزل سند محمد ضيفاً علينا صيف ١٩٤٩، وكان وقتذاك معلماً. وقد قال لأبي: من غير المعقول أن يستمر عبد الستار في (الملا) حتى الآن بل كان ينبغي أن يكون في المدرسة قبل سنتين. وتولى (أبو طلال) بنفسه مراجعة مدرسة الزوراء الابتدائية في دهدوانة سوق الجديد فأتم تسجيله في الأول الابتدائي، على أن هذا التحول الذي طرأ على حياة ولدنا. لم يجد قبولاً من أمه مليكة في أول الأمر، إذ كانت ترى بأن بقاءه في الملا واستمراره في حفظ القرآن أجدى نفعاً من المدرسة التي قد تفيد الصبي في الدنيا ولكنها تضيع أجره في الآخره اعتقاداً منها بأن ما يحفظه من أجزاء المصحف، سوف يمكنه من قراءته على قبرها بعد الممات، وهو ما لا يمكن تحصيله عن طريق مدرسة الزوراء، ولعل الشائع بين الأمهات في زمانها أوحى لها بمثل هذا الاعتقاد رغم أنها كثيراً ما كانت تبدي أسفها لعدم وجود مدرسة في أيامها لتتعلم قراءة القرآن.

-٩-

وفي الأسبوع الأول من عام ١٩٥٠ مَنّ الله علينا بميلاد (سعد) على يد جميلة أم كاظم، وهو الابن الثاني الذي ولد في الكرخ بدربونة زنكو، وكان فرحنا بمقدمه عظيماً، بعد تعاقب شقيقتيه سعدية ١٩٤٥ ووداد ١٩٤٧.

-١٠-

آخر المحطات في وقائع الكرخ هي الانتقال من الفحامة إلى بيتنا الجديد في محلة القشل صوب الرصافة.

قال الراوي: "فاجأنا أبي في ليلة شتائية باردة، أن نحمل متاعنا في الحال إلى عربة لوري تقف بانتظارنا (عند ناصية بيت إبراهيم الحليوة)، ارتحالاً إلى دار أخرى، تقع في أقصى الكون، في صوب الرصافة البعيد.

لم تغب عن ذاكرتي تفاصيل تلك اللحظة أو تنأى جزئياتها حتى الآن، بعد أن احتشد قلبي بالأسى، وبمرثيات الرحيل وعذاب فراق الأصدقاء. وتحول مشهد الوداع في تلك الليلة إلى موكب من الأحزان المهيبة كما لو أن الفحامة تشيع إنساناً عزيزاً عليها.

ويبقى الصبي حائزاً، وهو يقاوم حنين الطرقات، وصمت الليل، ورحيق الصحبة ودفء زنكو ومرابع العمر الجميل. ترى لم يشقينا الزمن؟! فيعذبنا، ويبكينا، حتى تشق الرحلة ويستحيل الاختيار؟! يئن قلبي تحت وجع الأسئلة، لماذا، كيف، أين؟! وهكذا شاء أبي أن يجعل الصبي يتنازل عن فردوس زنكو بـ (عقد القشل)؟! [1]



---

[1] عبد الستار الراوي فردوس الكرخ (مرجع سابق).

سنوات البهجة والرخاء

(١٩٥٠ — ١٩٥٧)

-١-

كانت السبع الأولى من سنوات الخمسينات، رخية وهانئة فقد أتاح الاستقرار العام، والوفرة المعيشية، أن نلتفت إلى أنفسنا قليلاً، فشرعنا في خان الأغا الكبير برنامجاً ترفيهياً أيام في الجُمع، وبدأنا نعد العدة لأول خطوة في هذا البرنامج، فاشترينا شباك صيد السمك وأضفنا إليها بناء على مقترح منّاع حسين معدات أخرى.

ووزعنا الواجبات، وهيأنا الأمتعة (الفرش والحصران والوسائد)، وعدة لطهي الطعام، وانطلقنا يوم الجمعة مبكرين صوب منطقة الراشدية في ثلاث سيارات تضم: أمين، مهدي، هادي، صبحي، عبد الستار، يحي، صباح بازل، عبود حمادي، ومناع وشقيقه خسار وابن سلمة وثابت غناش.

وقد حظينا في هذه الرحلة بصيد وفير من الأسماك، بحيث أهملنا الأطعمة التي جلبناها معنا، وتحولنا إلى (شي) السمك على طريقة (المسكوف) البغدادية.

وقبيل المغرب عدنا أدراجنا إلى بغداد، بعد أن جرى توزيع السمك حصصاً متساوية على الجميع، مما شجع القوم على معاودة التجربة في الجمعة التالية. وهكذا استمرت السفرات الترويجية، التي أخذت تتنوع أشكالها وأساليبها لاسيما في فصلي الربيع والخريف، فقد استحدثنا أيضاً الرحلات النهرية في دجلة فبدأنا بها يوم الخميس بدلاً من الجمعة؛ لأنها تبتدئ وقت

العصر من شواطئ خضر الياس،[1] فينحدر (البلم) [2] مع تيار الماء بنعومة وسلاسة، وبعد الغروب تتألق ضفتا النهر بالمصابيح المضاءة، تلقي بأنوارها الملونة على صفحات دجلة، فيما يتمايل الصحب طرباً، على إيقاع طبل مناع ومزمار خسار. وتختلط أصوات العتابة والسويحلي، بأغاني البستات[3] الخفيفة. ويواصل القارب الطواف، فيشعر الواحد منا وكأنه يرى بغداد أخرى. بغداد الجميلة، المدهشة. وعند موقع الجسر المعلق الحالي. الذي لم يكن قد أنشئ في ذلك الوقت يكون المرفأ الأخير، وقبيل أن ينتصف الليل، يعود القارب بصاحبه وحيداً، حسب اتفاق مسبق، إذ من الصعب على غير البلام الماهر أن يقفل راجعاً طوال هذه المسافة وهو يجدف ضد التيار. ومن الجادرية[4] نركب سيارة تقلنا إلى بيوتنا.

-٢-

أما أكثر السفرات الترويحية فكانت تلك التي تتجه إلى (سلمان بك)، [5] وهي السفرات التي أصبحت عادة أسبوعية، يجري فيها ما لم يجر في غيرها من السفرات الأخرى، فلا تكتمل متعتها إلا بشرط (الدبكة) التي كانت إذا حمي وطيسها تجتذب إلى حلقتها أفواجاً كثيرة من الناس والزوار، وكانت الدبكة تتم على أصولها، ونحن نملك العدة والعدد، أما العدة فهي: دمام مناع، ومزمار خسار، وطبلة صبحي.

وأما العدد فقد يزيد على العشرين رجلاً. والطريف، أن بعض المقيمين

---

[1] محلة كرخية قديمة ينسب اسمها إلى (الخضر). تطل على نهر دجلة.

[2] البلم: لفظة بغدادية تعني: (الزورق).

[3] جمع بستة: لفظة تركية غالباً وتعني: الأغنية الشعبية أو التراثية.

[4] من الأحياء السكنية من معالمها: جامعة بغداد.

[5] موقع أثري في قضاء المدائن.

في المنطقة كانوا يتفقدون غيابنا، بعد أن تعودوا على المهرجان الذي تقيمه أيام الجُمع هناك.

وكان المكان المفضل لممارسة الدبكة تحت قبة طاق كسرى تماماً، بحيث تتضاعف الأصوات، وتتجسد الأنغام والإيقاعات، وظل الحال على ما عليه إلى أن أتى موظف الآثار الذي طلب اختيار مكان آخر يكون بعيداً عن الطاق، مخافة أن تحدث الأصوات القوية تصدعاً في جسم الطاق حسب قوله. ولم تتوقف السفرات الترويجية طوال السنوات السبع من الخمسينات، إلا في عام ١٩٥٨؛ بسبب الظروف السياسية الجديدة التي طرأت على الحياة الاجتماعية عقب يوم ١٤ تموز.

-٣-

ومن الذكريات النديّة، التي لم أنسَ أيامها الحلوة، يوم زواج أخي أمين، الذي اقترن بابنة خالنا عبد الجبار، خاصة وأنه كان ولزمن طويل، لا يطيق فكرة الزواج عازفاً عنها؛ ولذلك كانت أيام فرحه من الأيام المشهودة في حياتنا، فقد تواصل الاحتفاء بهذه المناسبة لأكثر من سبعة أيام متواصلة، فقد دعونا الأهل والأقارب والأصدقاء والجيران حتى اكتظت الدار بالضيوف من بغداد وراوة.

وأقيمت مظاهر الزينة في باحة البيت والشرفات ودقت الطبول ونفخت المزامير في الليالي السبع، وأصبح الجوبي قائماً كل مساء. وكنت أشاركهم (الدبكة)، وأبقى في البيت نحو ساعة، ثم أنصرف لحال سبيلي، أما إلى مقهى (خداديّ) [1] في شارع غازي، أو إلى الخان لأنام إذا كان الوقت متأخراً.

وقد أقام أمين وعروسته في الحجرة الكبيرة التي تقع في الطابق العلوي

[1] اسم صاحب المقهى وهو من الكرد الفيليين وتقع مقهاه مقابل محلة (بني سعيد).

في دار القشل وبعد مرور ثلاث سنوات انتقل إلى بيته الجديد الذي شيده في مدخل مدينة البياع. [1] حيث أقام وعمل هناك بعد أن افتتح في سوقها محلاً تجارياً بالمشاركة مع ناجي الدفاعي صاحبه وصديقه إلا أن هذه الشركة لم تستمر طويلاً بينهما فقرر أمين انهاءها بالمعروف، قبل أن ينتقل إلى خان حسين السباهي[2] ليفتح محلاً تجارياً بمشاركة مهدي عبد الجبار وكمال عبد الغفور. [3]

-٤-

قال الراوي: "على مائدة غذاء (الجمعة) من عام ١٩٥٦، رجوت أبي وبحضور العم أمين، أن يوافق على خطبة (الفتاة) [4] التي اخترتها، وقبل أن أنهي كلامي، أخذ أبي يضحك مقهقهاً، حتى استلقى على قفاه من شدة الضحك. مما جعلني أعزف عن الطعام وأنا أشعر بالمهانة من ردة فعل أبي، وحاول العم التخفيف عني، وهو يقول إن أباك لم يتعمد السخرية منك؛ بل لأنك فاجأتنا بطلبك، ثم تقدم أبي مني. وهو يحاول مجاراتي قائلاً: "أليس الأهم من الخطبة وقبل أن تقدم عليها، أن نتعرف على عائلة البنت أصلاً وفصلاً، ومن قال لك أن أباها يوافق على تزويجها منك، أيعلم أحد من أهلها أنك تريد ابنتهم وهل علموا بأنك لا تزال تلميذاً في السادس الابتدائي، ومهما يكن فأمك مستعدة الآن لأن تذهب إلى بيت البنت".

تلك كانت أولى تجاربي المبكرة، عندما وقعت في الحب أول مرة ولم يكن

---

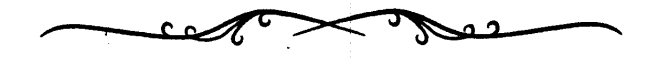
[1] استحدثت مدينة البياع عقب ١٤ تموز ١٩٥٨ وأصبحت فيما بعد واحدة من بين المدن الكبيرة من حيث الكثافة السكانية في أطراف العاصمة من جهتها الجنوبية.

[2] ويسمى أيضاً خان حسين العاني، وقد يدعى بـ (خان صادق) موقعه قبالة سوق الصابون المتفرع من سوق الشورجة.

[3] ابن خال عز الدين.

[4] تجربة عاطفية عجولة مرّ بها الراوي في سني مراهقته.

عمري حينذاك قد تعدى الخامسة عشر؛ الأمر الذي جعل والدتي بعد ثلاث سنوات من هذه الواقعة تسافر إلى راوة عندما كنت مقيماً فيها، عقب خروجي من السجن وتفاتح خالتها جميلة العمير، وولدها نعمة الفرحان، لخطبة ابنتهم الصغرى، ولم يكن عمري آنذاك قد تجاوز الثامنة عشر، فما كان من نعمة إلا أن طلب منها تأجيل هذا الموضوع في الوقت الحاضر؛ لأن أمام عبد الستار مشواراً طويلاً من الدراسة وأن الأفضل له أن يستمر في تحصيله العلمي، وعندما يظفر بالشهادة، ويحصل على وظيفة مناسبة عندها فقط يمكن أن يختار بنفسه شريكة حياته.



السنوات الشّداد

(١٩٥٧ — ١٩٥٩)

-١-

في عام ١٩٥٧ أنذرت الحكومة الحاج مهدي صالح إخلاء الخان (خان الأغا الكبير) خلال فترة محددة، بعد أن أصبح موقعه طبقاً لمرتسم شارع الخلفاء – الجمهورية – المزمع إنشاؤه، جزءاً من مقتربات الشارع الجديد، وعليه صار القرار بإزالته من الوجود أمراً حتمياً، وما أن تسلمنا إنذار أمانة العاصمة حتى شرعنا البحث عن المكان البديل، الذي لابد أن يكون مقارباً في المواصفات لخان الأغا الكبير من حيث الموقع الملائم في سوق الشورجة وإن يكون ذا سعة معقولة، إلا أن العثور على النموذج الأول بدا محالاً، فعموم الخانات الكبيرة المعروفة آنذاك في السوق كانت مشغولة من أصحابها.

وطال البحث دون جدوى فاضطر الحاج مهدي تحت ضغط الإنذارات الحكومية المتكررة أن يستأجر خاناً في منطقة (تحت التكية) [1] خلف (سوق الزجاج)، [2] لا يبعد كثيراً عن موقع خان الأغا، إلا أنه أصغر مساحة، فاقتصر إشغاله حسب قرار الحاج مهدي على مكتبه وبضاعته، مع تخصيص جزء منه ليقيم فيه عبد الجبار وولده مهدي دكاناً لكل منهما. فيما تفرقت السبل بالآخرين الذين لم يجدوا لتجارتهم مكاناً في الخان الجديد.

---

[1] إحدى المحلات البغدادية القديمة المجاورة لسوق الشورجة.

[2] متفرع من سوق الشورجة، واسمه يدل على نوع بضاعته فقد اختص ببيع وتجارة الأواني الزجاجية والخزفية.

-٢-

في أخريات عام ١٩٥٧، وصلت عائلة الحلبي (محمد وأحمد هاشم) إلى بغداد ونزلت في بيت خالي عبد الجبار في الأعظمية، بعد أن جرت مكاتبات مع الحاج مهدي صالح، عبر وسيط من الراويين المقيمين بين حلب والبوكمال، لإقامة مشروع صناعي للحلويات الحلبية في العراق، وقد جرى الاتفاق بين الطرفين بان يقوم الحاج مهدي صالح بتمويل المشروع، (المكان، المعدات، المواد الأولية) بالإضافة إلى تهيئة محل في الخان لعرض وتسويق الإنتاج، في مقابل قيام الطرف السوري بتشغيل المعمل صناعة وإنتاجاً وادامة وإشرافاً.

بعد مضي ثلاثة أشهر بدأ الإنتاج ينزل إلى الأسواق الذي لقي بعد فترة ليست طويلة من الزمن إقبالاً من الزبائن لجودة صناعته وتهاود أسعاره، وقد أقيم معرض صغير في ركن الخان للمنتوجات، وقد اتفق الشركاء أن يخصص لأبي حصة في المصنع بنسبة $\frac{١}{٨}$ في مقابل المساهمة في رأس المال، الذي كان وقتذاك مبلغاً متواضعاً. وستصبح الورشة الصغيرة التي أقيمت في المحلة المجاورة للمهدية [1] بعد مرور عشر سنوات من إنشائها من أكبر مصانع الحلويات في العراق، وستحل ماركة (هاشم إخوان) علامة الجودة الأولى في عالم صناعة الحلويات في العراق والأقطار المجاورة، بعد أن صارت بضاعتها تنافس مثيلاتها من الحلويات المستوردة.

-٣-

حل الخال عبد حمادي الصالح ضيفاً علينا في دار القشل، وقد أفردت أمي لأخيها سريراً في حجرة (الطبقة).

---

[1] محلة في الرصافة بين شارع غازي ومحلة الفضل.

ألقت الأحداث السياسية العنيفة التي بدأت تتفاقم بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ [١] بظلالها على ميادين الحياة كافة، وانصرف تأثيرها على المجتمع بكل طبقاته وألوانه، بل وعلى سوق التجارة أيضاً، فجاء زمن لم يعد فيه الإنسان آمناً على يومه وغده، وصار العنف هو اللغة الوحيدة السائدة، في عموم البلاد، فملأ الخوف القلوب والعقول، ولم ينج الخان الجديد من ظاهرة العنف، وإن كان بصورة أشد إيلاماً وإيذاءً. فقد التقطنا العديد من الإشارات الواردة إلينا من الخانات والمحلات المجاورة بأن هناك أمراً يدبر ضد الخان وأصحابه، وأن رأس مهدي عبد الجبار أصبح مطلوباً، بعد أن أصر على عدم رفع صورة جمال عبد الناصر[٢] من صدر دكانه، حين طلب بعض الشقاة في الشورجة إنزالها، ويبدو أن مهدي لم يأخذ التهديدات التي بدأت تقرع أسماع أهل الخان في الرواح والمجيء، أقول لم يأخذها مأخذاً جدياً، ظناً منه بأنها مجرد تهويشات القصد منها إلقاء الخوف في القلوب، وأن أحداً من هؤلاء الشقاة لن يقدم أو يجرؤ على أي فعل طائش.

وفي غضون أيام قليلة، تعرض مهدي عبد الجبار لاعتداء بالضرب المبرح في طريق العودة إلى البيت، مما اضطره إلى ملازمة الدار أياماً، ريثما تهدأ الأمور. لكن الأمور لم تهدأ، بل ازدادت اضطراباً بعد أن اختلط الحابل بالنابل.

---

[١] الفقر الشديد في الخبرة السياسية وتدني مستويات الوعيّ لدى الجماعات والأحزاب السياسية، الحياة الاجتماعية، فتعرض السلام الأهلي بين المواطنين إلى أفدح أنواع الخسائر نتيجة العنف وشيوع الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

[٢] ثمة تيار شعوبي معاد لكل ما هو عروبي وقومي ظهر بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ والذي اعتبر عبد الناصر العدوّ الأول له، فبدأ في ملاحقة أنصاره من القوميين والبعثيين الذين كانوا يطالبون بالوحدة العربية مع الجمهورية العربية المتحدة.

في الليلة العاشرة من تشرين الأول من عام ١٩٥٨، أيقظني أبي من نومي، وهو يغالب النعاس، مشيراً بيده إلى الأفق المستعر بألسنة نار عظيمة، هائلة العلو والاتساع قائلاً: تُرى هل هذا الحريق آت من الفلوجة؟

(وكنا يومها ننام في السطح). ولم يكد أبي ينتهي من كلامه حتى سمعنا طرقاً عنيفاً متتالياً على باب الدار، وصوتاً يشبه العويل، يستغيث وهو يردد: "عز الدين عز الدين احترق الخان"! وظل أبي لبرهة صامتاً مأخوذاً بين الدهشة والصدمة، إلى أن استفاق وهو يصيح خائفاً فزعا: "يا رب .. يا رب استر".

فانحدرنا من السلم العالي، نطوي الدرجات بغير هدى، وانطلقنا من عقد الفشل نعدو عدواً صوب الشورجة، وأبي لا يكف عن الدعاء والرجاء، وهو في أشد حالات الهلع والاضطراب.

وفوجئنا بكثافة الدخان تتسرب في الطرقات، وحين شارفنا الوصول إلى منطقة الخان، أفزعتنا النيران المندلعة في منطقة شاسعة، لا يمكن لأحد أن يقترب منها، وأصبح الخطر يحدق بسوق الشورجة كله، جراء تطاير الكتل النارية الهائلة الحجم في الفضاءات الواسعة.

أبي يتأمل المشهد المأساوي بعين مغرورقة بالدموع، يتأوه متألماً وهو يردد بصوت خفيض: "يا غافلين لكم الله. إنا لله وإنا إليه راجعون". أحاط بأبي عدد من أصحابه ومعارفه في الشورجة وهم يحاولون مواساته، والتهوين من وقع المصاب عليه.

ولم يزد جوابه عن عبارة "الحمد لله الذي أعطى وأخذ" سمعنا ونحن واقفون نرقب الحرائق الهائلة التي تعذر على فرق الإطفاء اقتحامها. بأن

الزعيم عبد الكريم قاسم[1] جاء بنفسه للوقوف على حقيقة الوضع، ولكننا لم نره؛ لأنه قدم إلى الشورجة من جهة الرشيد فيما نحن في الطرف الآخر منها، أي شارع (الخلفاء).

النار تخبو وتستعر، وجاء الناس من كل الجهات، وهلع التجار وأصحاب المحلات، وشهدنا (شقشقة) الفجر ونحن واقفون. وعند شروق الشمس كان الخان قد تحول إلى كومة من رماد. لم يعد ثمة من سبب يدعونا إلى البقاء. بعد أن انتهى وراح كل شيء. عدنا أدراجنا إلى البيت.

في اليوم التالي نشرت صحف بغداد خبر الحريق، الذي أتى على خمسة خانات، قدرت الخسائر في حينها بربع مليون دينار، وأن لجنة خاصة من وزارة الداخلية ستباشر تحقيقاتها لمعرفة أسباب الحريق.

-٦-

وترجح القرائن التي تم الكشف عنها من جهة اللجنة التحقيقية إلى أن الحريق كان فعلاً جنائياً من قبل بعض شقاة الشورجة، وقد وضعت وزارة الداخلية يدها على بعض الأدوات التي استخدمها المخربون في هذه العملية ومنها مادة (البنزين) التي جرى التحقق من وجود آثار لها في مدخل الخان.

قيل أن الحكومة تدرس موضوع تعويض متضرري الحريق من أصحاب الخانات والدكاكين والتجار، إلا أن شيئاً من هذا لم يتحقق، ولم يعرف أحد حتى اليوم النتائج التي آلت إليها لجنة التحقيق الخاصة.

والوحيد الذي تم تعويضه هو الحاج مهدي صالح عن طريق شركة التأمين الوطنية بمبلغ عشرة آلاف دينار، فيما خرج أبي وخاله عبد الجبار وولده مهدي وقد أضاعوا كل الذي بحوزتهم من البضائع والأموال، مثلما فقد

---

[1] بوصفه رئيس مجلس الوزراء والقائد الأعلى للبلاد.

أبي حصته الـ ($\frac{1}{8}$) في مصنع الحلويات، بدعوى أنه لم يسدد ما عليه في رأس مال الشركة وأن الحريق وضع حداً لهذه الشراكة؟!

وأذكر يومها أن كل الذي كان في جيب أبي عشرة دنانير فقط، لكنه ظل صابراً محتسباً مؤمناً بقضاء الله وقدره. وأن المصيبة التي حلت بالعائلة ليست إلا حلقة من حلقات الحياة. وأن الأموال تأتي وتذهب والمهم أننا في تمام الصحة والعافية. بهذا المنطق كان يتحدث أبي قصد التهوين علينا بعد أن خيم القنوط على الأسرة أياماً طويلة.

-٧-

حدثني أبي عن معاناته والعائلة يوم تم اعتقالي عام ١٩٥٩ قائلاً: "كاد القلق يأكل قلوبنا بعد أن انقضت ساعات النهار ولم تعد من مدرستك في ثانوية الكرخ. بدأنا نبحث ونتحرك ونسأل هنا، ونستوضح هناك ما من أحد يعلم عنك شيئاً. إلى أن أطلّ علينا صديقك شاكر السامرائي مساء يوم ١٥/٣/١٩٥٩، ونحن أمام مائدة الإفطار الرمضانية واجمون لم يمد أحد من أفراد العائلة يده إلى طعام، فأنبأنا بأنك محتجز في مركز شرطة الجعيفر،[١] وما أن سمعت أمك الخبر حتى صرخت ملتاعة وكادت تسقط مغشياً عليها من شدة الجزع، وبسرعة فائقة لملمنا أنفسنا، وقبل أن نهم بالخروج أشار شاكر إلى ضرورة أن نحمل لك فراشاً وبعض الملابس والأمتعة.."

يقول الراوي: "الحبس، هو التجربة المرة الأولى،[٢] جدران صم فراغ موحش، رائحة الموت، باب موصد، الصمت لغة أخرى توقظ الأفكار والهواجس لا أحد من أهلي يعلم حتى الآن ما جرى ويجري، الظلمة تطبق

---

[١] كان موقعه آنذاك في محلة التكارتة.

[٢] تم اعتقالي بسبب انتمائي للتيار القومي العربي الذي كان يدعو إلى إقامة وحدة عربية مع الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر.

على المكان كله.

في حوالي التاسعة مساء ١٩٥٩/٣/١٥ جاء أبي وأمي برفقة شاكر السامرائي، وقد أفزعهما حالي، أجهشت أمي بالبكاء، فيما حاول أبي أن يبدو متماسكاً، دس في جيبي دينارين، والتفت إلى رئيس عرفاء المركز متوسلاً إليه أن يكون رحيماً بي وأن يكفوا أيديهم عني، وفي العاشرة مساء في نفس اليوم، بلغني مأمور المركز بقرار قاضي التحقيق الذي يقضي إيداعي التوقيف وفق مادة قانونية عقوبتها تتراوح من ثلاث إلى خمس سنوات. وفي الليلة ذاتها جرى نقلي إلى مركز شرطة سوق الجديد[1] وبعد يومين إلى مركز شرطة الشيخ موسى[2] ثم إلى التحقيقات الجنائية[3] وبعدها تم ترحيلي إلى معتقل شرطة القوة السيارة [4] خلف سدة بغداد حيث أمضيت هناك مدة (٢٢) يوماً، ولم يطلق سراحي إلا في ١٩٥٩/٤/٧ بقرار من الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان ينصّ على إخلاء سبيل عموم الطلبة المعتقلين لأسباب سياسية، وعلى إثر ذلك قام مهدي عبد الجبار بتقديم كفالة ضامنة بمبلغ (٥٠٠) خمسمائة دينار.

-٨-

يقول الراوي: "عقب خروجي من المعتقل وجد أبي أن من الصعب أن استمر في الدراسة والإقامة في بغداد في ظل الأوضاع المضطربة التي غاب عنها الأمن والقانون، وعليه رأى أبي أن من الضروري أن أغادر العاصمة ولو إلى حين ريثما تهدأ الأمور، والذي شجعه على اتخاذ قرار السفر إلى راوة هو نعمة فرحان (ابن خالة أمي) الذي تعهد أن يرعاني ويشرف على

---

(١) الموقع القديم يف محلة الرحمانية.

(٢) جوار الفحامة من الجهة الجنوبية.

(٣) الموقع القديم بشارع النهر.

(٤) معتقل سياسي.

دراستي بوصفه مدرساً في ثانوية راوة. فسافرت برفقته وأنزلني في بيته ضيفاً، وقد وجدت منه ومن أهل بيته المودة والترحاب، وبالأخص الخالة جميلة العمير. وبعد مضي ثلاثة أشهر انتقلت إلى دار عمي مطني العساف وعشت فيه مستقلاً بمفردي، حيث كانت الدار شاغرة، بعد أن أقام عمي مطني وعائلته في الفلوجة.

وقد أحاطتني جدتي حمدية برعايتها أثناء زياراتي المتكررة لها في بستان جدي.

فيما لم تنفك عمتي عائشة وولدها سعيد وزوجته فليحة وولداها دحام وعفتان عن حمل الطعام إليّ، طوال فترة إقامتي في راوة. وبعد مضي أسابيع من إقامتي، أخبرني أبي برسالة فرحت بها كثيراً، بأن أصبح لي أخاً ثالثاً اسماه – عبد الكريم– أطل على الدنيا يوم ١٩٥٩/٥/١٦. وفي هذه الفترة اعترفت برسالة بعثتها لأبي، بأنني أصبحت مدخناً، ولم يعد بوسعي إخفاء هذه العادة الذميمة راجياً عفوه فكان جواب أبي عملياً ومباشراً، بأن بعث إلي كمية من سيجاير (غازي) وزاد المبلغ المالي المخصص لنفقاتي في راوة.

ويعد سفري إلى راوة والإقامة فيها أول حالة اغتراب مررت بها في حياتي، حاولت خلال السنتين التي أمضيتهما بعيداً عن أهلي، التكيّف وفق ظروف البيئة السائدة، والاندماج في مجتمع القرية واحترام تقاليد القوم.

الحياة في راوة مفعمة بتفاصيل جمة، غاية في العذوبة تشرح الصدور كما يقولون، فأول شيء يلمسه الآتي هنا، التلقائية، الطيبة، السخاء، وقدراً رائعاً من المحبة، والفرات عذب ماؤه وليس صحيحاً ما حاولنا حشوّ أدمغتنا به من أن الماء عديم الطعم.

إن مذاقه الطيب، يجعل كتاب الأحياء بحاجة إلى نقد ومراجعة الكثير من البديهيات المدرسية. يأتون بالماء من الفرات مباشرة يضعونه في حباب ونشربه من الناقوط، يبدو لونه بلوريا رائعاً (جلاباً)، وقراحاً.

لم تعرف القرية في ذلك الوقت لا الإسالة ولا أحواض الترشيح وهي تستعين على الظلمة بالفوانيس وبضوء النجوم، ولم يجرب الناس هنا طرق الأسفلت الناعمة، ولكنها تدهشك بنظافة دروبها وأزقتها ونظام الحياة في ربوعها.

القرية تشبه جزيرة يحيطها الفرات من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة فتمد طريقا إلى (البراري) والصحاري صوب الجزيرة المنبسطة، إلا من هضاب متناثرة في أطراف القرية ومقترباتها.

تصحو راوة قبيل الفجر وتؤدي الجموع الصلاة في مساجدها الأربعة المطلة على المياه، وإذ أدت القرية أولى الفروض فإنهم يبدأون مع أول خيط الشروق العمل. ولا تهجع الناس فيها إلا بعد انقضاء المسامرات.

لم يعرف أهلها جوعاً ولا إملاقاً، ولا أصاب أرضها جفاف، أو جربت ظمأ، ففي كل دار حديقة أو بستان تتدلى على شبابيكها الثمار، يظللها النخيل والتين والزيتون، ولا أحد من أهلها ينام على الطوى، فالقرية تمد بنيها بالخير العميم، وإذ شعر أحد بأن بيتاً ما يعاني من نقص في المؤن أو الثمرات، فلا تمضي الليلة، حتى تمتلئ الدار بالحبوب والطعام سراً دون جلبة أو ضجيج، يجري ذلك بصمت الأتقياء.

ليس ثمة صباح جميل في الدنيا يماثل صباح القرية إلا إشراقات (دربونة) الطفولة في كرخ بغداد، فالبيت الذي أقيم فيه تتدلى نوافذه في النهر، وأكاد في نيسان أمس المياه بيدي، فيما تنساب موسيقى الوجود العريق من (ناعور شكرة) نهاراً وليلاً، يجاورني، على مقربة حميمة لا تزيد عن عشرين ذراعاً عن نافذتي.

الحياة في راوة رضية بسيطة. وقد منحني الناس هنا منذ وصولي دفء الصحبة وكرم الوفادة، والاحترام.



وقائع الستينات

(١٩٦٠ — ١٩٧٠)

-١-

"بعد حادثة الحريق مكث أبي في البيت أربعة أسابيع قبل أن يبعث بطلبه الحاج مهدي صالح، ليعمل إلى جواره في الخان الثالث الذي استأجره والذي يقع في منطقة تحت التكية من جهة الباب الخلفي لعمارة البهبهاني في الشورجة.

يقول أبي "أشهد الله بأن الحاج مهدي عرض علي العمل في الخان وهو يردد بأني أفكر بعبد الستار مثلما أفكر بولدي فاروق".

أمضيت في خان دارة فتاح عشر سنوات كاملة، قبل أن ننتقل إلى شارع الخلفاء (الجمهورية)، وبقيت أحتفظ بصفتي المهنية "خانجي" تلك المهنة التي لازمتني طوال حياتي العملية في السوق.

اقتصرت أنشطة الخان الثالث على تجارة الحاج مهدي التقليدية وهي في المقام الأول ورق السجائر والشاي والخيوط. فيما اتخذ (هاشم إخوان)، ركناً لعرض منتوجاتهم من الحلويات عند مدخل الخان، على امتداد الرواق من جهة اليسار.

واحتفظ صاحب الخان داود فتاح بمكتبه في حجرة تطل على (حوش) الخان، يتواجد فيها طوال النهار مع ولديه علي وعبد الله وهو يضع فوق طاولته نماذج من الصابون التي ينتجها في معمله المعروف بمعمل التوفيق.

وفي بداية مرحلة الستينات بدأ فاروق الراوي يسعى إلى تطوير وتوسيع تجارة أبيه، فنفذ عدداً من المشاريع الصناعية منها:

- مصنع فرش الأسنان.
- مصنع شفرات الحلاقة (بالميت).
- مصنع الخيوط.
- مصنع ورق الشام والرشيد.
- تطوير معمل صناعة الحلويات (حلويات زهير).

أما على الصعيد الشخصي، فيقول أبيّ: "بدا العمل في الخان الثالث أفضل حالاً من ذي قبل، بعد أن شهد السوق مرحلة انتعاش اقتصادي ملحوظ، فبدأت أفكر جدياً في تجديد دارنا في القشل بعد أن تقادَم عليها الزمن، وآلت بعض أجزائها إلى التلف.

-٢-

وفي أواخر عام ١٩٦٠ باشرت البحث عن مقاول أعهد إليه بعمليتي هدم الدار القديمة، وإنشاء عمارة بديلة عنها ولم تمض فترة طويلة، حتى جرى الاتفاق مع مقاول لهذا الغرض، وكانت المعضلة التي واجهتنا هي المكان البديل الذي يأوينا طوال المدة التي تتطلبها عملية (البناء) وفور أن علم أمين، بهذا الأمر حتى عرض علينا الانتقال إلى داره، في البياع، وهكذا جرت الأمور، بعد أن خصص أخي الطابق الثاني في بيته لنا.

-٣-

استمرت إقامتنا في البياع قرابة تسعة شهور، وبانقضاء هذه المدة، كان بيت القشل قد تم بناؤه، ولكنه لم يعد كما كان واسعاً، فقد تحول إلى شقة معلقة ذات مساحة صغيرة، تضيق عن استيعاب العائلة، بعد أن أقيم البناء على شكل عمارة وليست داراً للسكن، وعليه، فقد رأى أبي بأن الحل الأفضل عملياً، هو أن تعرض الشقة و(العلوة) والقبو الملحق بها للإيجار، وعن

طريق الوارد المالي منها الذي لابد أن يكون مجزياً ندفع قيمة بدل الإيجار لدار واسعة ومناسبة. ولم يطل البحث عن الدار المرتقبة بعد أن قررت العائلة اختيار السكن في الأعظمية، فنقلنا الأمتعة والأثاث في اليوم التالي، للدار الواقعة بمحلة "السفينة" [1] على بعد خطوات من النهر، في شارع جانبي يعج بالمارة، وبأصوات رواد المقهى المجاور الذي يقع على الناصية.

وعقب مضي أيام على نزولنا السفينة، فتر حماسنا جميعاً حيال البيت والمحلة، واكتشفنا بأننا لم نحسن الاختيار، فصار وجودنا معلقا، لذلك لم يطل بنا المقام في تلك الدار طويلاً.

-٤-

قال الراوي: عندما انتقلنا إلى دار عيسى العاني في (النصة) [2] كان الانطباع الإيجابي، مباشراً وفورياً، ليس بسبب سعة الدار ورحابتها فقط، وإنما الإحساس النفسي المريح الذي صاحبنا. ونحن نلج باب الدار التي وجدناها وكأنها الضالة المنشودة التي نبحث عنها.

وفي هذه الدار أطل على دنيانا يوسف الذي عدت أمي ميلاده فأل خير على العتبة الجديدة، فيما قال أبي بأن للوليد الجديد عيوناً ملونة في إشارة إلى عينيه. وبهذا اكتمل العدد وتكافأت النسبة خمسة أولاد وخمس بنات. وفي السنوات الأولى من عقد السينيات انتقلت ثلاث من البنات إلى بيت الزوجية، وهن ألمازة، وسعدية، ووداد.

وفي العام ١٩٦٢ أنهى عبد الستار المرحلة الإعدادية في ذات الوقت الذي كان سعد ومحمود في المرحلة الأولى من الدراسة.

---

[1] تقع في الأعظمية (القديمة).

[2] محلة في الأعظمية.

أتيحت الفرصة عام ١٩٦٢ لأن يؤدي والدي فريضة الحج للمرة الأولى، في رحلة طويلة زار خلالها الأردن وأدى مراسيم الزيارة للقدس، وعقد أداء هذه الفريضة، أضفى الناس عليه لقب "الحاج".

-٥-

ومن بين وقائع عام ١٩٦٣ في حياة العائلة، هو يوم اضطر عبد الستار الهروب إلى البصرة بقصد عبور الحدود الكويتية ومنها إلى القاهرة. بعد أن صدر أمر إلقاء القبض عليه عقب ٨ شباط ١٩٦٣، بتهمة انتمائه إلى حركة القوميين العرب، وكان يومها يرقد مريضاً في المستشفى الجمهوري جراء إجراء عملية (الزائدة الدودية).

يقول أبي: "منذ أن غادرت بغداد صوب البصرة، ونحن قلقون، لم يعد أحد منا يستطيع النوم أو الطعام".

يقول الراوي: "بعد أنْ كدت أجتاز الحدود الكويتية عدت منها مرتين الأولى يوم ١١/١٣ والمرة الثانية يوم ١٩٦٣/١١/١٨، إذ تزامن إغلاق الحدود في هذين التاريخين بسبب الصراعات الدامية التي تفجرت بين أركان السلطة في بغداد. وقد أعانني ووقف إلى جانبي السيد مكي الحاج حسين [١] (مدير شرطة البصرة) آنذاك. فقد حرص على رعايتي منذ وصولي، وهو الذي هيأ الظروف المناسبة لاجتياز الحدود ثم العودة آمناً إلى أهلي في بغداد. كان رجلاً كريماً وإنساناً رائعاً".

---

[١] لابد من التنويه بأن السيد مكي الراوي جازف بمنصبه الأمني الرفيع من أجل ضمان سلامتي، رغم إنني كنت معارضاً للسلطة، ومطلوباً لها بمقتضى أمر إلقاء القبض إلا أن السيد مكي تجاوز كل هذه المحاذير ووفر لي غطاءً مناسباً لضمان اجتيازي الحدود الدولية، تحية إلى ذكراه النديّة بعد أن ارتحل إلى العالم الآخر في التسعينيات.

-٦-

يقول الراوي: "وفي صيف ١٩٦٦، فاتحت أبي برغبتي السفر إلى مصر خلال العطلة الصيفية، فرد علي بأن علي أن أنهي دراستي الجامعية التي لم يبق عليها سوى سنة واحدة، وعندها يمكنني أن أسافر على راحتي. ثم ما لبث أبي أن عدل عن رأيه.

إذْ جاني أخي سعد، وعلى شفتيه ابتسامة لها معنى، قائلاً: "يقول أبي، ما هو المبلغ الذي يكفيك للسفر؟"

-٧-

عقب عودتي من رحلتي الطويلة التي استغرقت (٤٥) خمسة وأربعون يوماً، طفت خلالها الأردن وسوريا ولبنان ومصر،[1] بقى من المال مبلغ خمسين ديناراً، قال أبي وهو يردها إلي: "اشتر بهذه الفلوس مكتبة لتضع فيها كتبك المتناثرة هنا وهناك".

وهي المكتبة الثانية بعد ضياع الأولى عام ١٩٥٩، التي اشتراها أبي من عائلة يهودية في عقد القشل عام ١٩٥٤، وكانت تلك أول مكتبة في دارنا، وكنت يومها في الصف الرابع الابتدائي.

-٨-

عشية التخرج من الجامعة، بارك أبي نجاحي، وسألني ونحن نتناول الطعام: "ماذا ستفعل الآن، وقد أنهيت دراستك؟" فأجبته على الفور: "رغبتي أن أكمل دراستي العليا في مصر، فسكت أبي ولم يعلق بشيء على كلامي".

---

[1] يقتضي الوفاء التنويه بموقف السيد ثابت عثمان الدكي الذي أنقذني من سلطة أمن الحدود التي حاولت منعي من مواصلة السفر في نقطة (الرطبة) الحدودية، بدعوى وجود اسمي في قائمة الممنوعين من السفر، ومطلوب إلقاء القبض عليَّ، لولا تدخل السيد ثابت في اللحظة الأخيرة، حيث كان يعمل في شركة التأمين الوطنية في الرطبة.

وفي الأيام التالية، وأنا منهمك في متابعة أوراق التقديم إلى جامعة القاهرة، أخبرني أبي بأن فاروق مهدي ينتظرني غداً في الخان لأمر لم يفصح عنه.

في صباح اليوم التالي كان فاروق، يلقي على نفس السؤال الذي وجهه أبي إليّ من قبل، "ماذا ستفعل وقد أنهيت دراستك الجامعية". ولم يدعني أجبه، فبادرني بقوله: "ما رأيك أن تعمل معنا في أحد المصانع؟!

وقبل أن أجيبه على سؤاليه، ألقى علي سؤالاً آخر، ما مقدار راتب خريج الكلية"؟! فأجبته: "بأنني ومنذ زمن قد خططت لأن أكمل دراستي العليا، وهي الخيار الوحيد الآن، ولا أظن أني أستطيع أن أفكر بشيء آخر أو بديل في الوقت الحاضر".

قال فاروق معقباً: "ألا ترى بأن الشهادة الجامعية كافية، لأن تبدأ حياة جديدة في حقل العمل، وأنت لست غريباً عن السوق، بإمكانك أن تحصل على راتب هو ضعف راتب الحكومة."

أجبته معتذراً: "أقدر لك كل ما عرضته، لكني لا أجد سبباً حتى الآن، يجعلني استبدل طموحي بعمل أو وظيفة". فختم كلامه بقوله: "أتمنى لك التوفيق"... وهكذا بدأت رحلتي إلى مصر يوم ١٩٦٧/١٠/٩.

-٩-

قال الراوي: "أفزعني عنوان خبر صغير منشور في جريدة الأهرام يوم ١٩٦٩/٨/٥ تحت عنوان: "بغداد تشيع أحد شهدائها سعد عز الدين الراوي". وما أن بدأت بقراءة الخبر وأتيت على الاسم، إلا وشعرت بأن الدماء تجف في عروقي، وكدت أسقط أرضاً، فنهض (أدمون وعامر وبدران) [1] وهم في

---

[1] أصدقاء مقربون منذ أيام جامعة بغداد وتواصلت في مصر واستمرت فيما بعد.

حيرة من أمرهم، فأشرت إلى الخبر المنشور. وكنت يومها مع أصدقائي الثلاثة، في شقة عامر النفاخ في الإسكندرية. بادر أدمون واتصل هاتفياً بأستاذنا الدكتور علي سامي النشار الذي كان المشرف على رسائلنا العلمية في مرحلة الماجستير، ولم يمض وقت طويل، حتى جاءنا الشقة، فأخذني من يدي وعانقني، وهو يقول: "أخوك لم يمت بل هو يعيش في ضمير أمته كلها، وليست هناك منزلة تقارب منزلة الشهيد".

رافقني الأصدقاء الثلاثة إلى القاهرة، حيث كان عم أمين والخال عبود، وأقام الصديق قيس العزاوي مأتماً في مصر الجديدة يشبه مجلس الفاتحة، حضره عمي الذي لم تجف دمعته، والخال عبود.."

وبعد يومين سافرت إلى بغداد، واتجهت مباشرة من المطار إلى خان دارة فتاح. ما أن رآني أبي مقبلاً عليه حتى هب واقفاً، فأخذني بأحضانه وعانقني عناقاً حاراً. وكلانا بكى، وحاول أن يخفف عني ويهوّن عليَّ أحزاني، وهو يقول: "الحمد لله لقد مات شهيداً، وشيعته بغداد كالملوك ولم يبق أحد إلا وسار في موكبه".

ولسنوات مديدة ظل غياب سعد ورحيله، جرحاً فاغراً في قلب أمه وأبيه وأهله، فلم يكن بوسع أحد من أفراد عائلتنا قادراً على احتواء الفاجعة أو تناسي فداحة المصاب. كانت صورة سعد لا تفارق ذاكرتي، وكأني أراه حاضراً في يقظتي ومنامي. حتى كدت أصاب بالجنون، وأنا أرقب عودته حياً، قد يطل علينا في أي وقت، ولعل رحيله وهو في عنفوان فتوته، وبالطريقة المأساوية التي ضرب فيها مثلاً بطولياً فريداً في البسالة والإيثار، كان ذلك كله سبباً كافياً، لأن أتقبل أوجاع فراق الأحبة والأصداء من بعده، وأستوعب ما يقضي به الزمن من أرزاء فلا أظن أن هناك حزناً مهما كان عظيماً، يكافئ أو يعادل الحزن الذي يصيب الإنسان جراء فقدان الأخوة

والأشقاء.

ولذات السبب أو بكيفية أخرى، آمنت بأن الموت إحدى بديهيات الكون البالغة البساطة التي لا تحتاج إلى برهان، عبر موكب الموت الذي لا ينقطع في الطبيعة، ونحن نودع عم أمين، هادي، عبود، أسماء، عبد، مهدي عبد الجبار، عبد الله، أكرم، خالد حبيب، بدوية، هبة. ومن الأصدقاء نوري شفيق العاني، فالح قرة علي، خالد خليل.

استذكر الآن جملة من التداعيات الأليمة قبيل رحيل سعد، إذ اتصلت بي أمي هاتفياً عندما كنت في (بيجي) مديراً لإحدى مدارسها، وهي تحثني أن أتحدث مع أخي لأثنيه عما عزم عليه، بعد أن التحق فدائياً في صفوف جبهة التحرير العربية، وحدثته، وأنا أقول: "مازلت طالباً، وصغير السن، وعليك واجب إكمال دراستك".

فأجابني سعد: "نعم أنا طالب، وصغير السن، ولكن متى كان الجهاد مشروطاً بالدراسة وسنوات العمر. أليست معركة فلسطين هي معركة كل العرب والمسلمين؟!"

ولم أجد في كلامه إلا وعياً عميقاً، لا يمكن لأحد أن يحاججه فيه. فألقى السلام ومضى، وكتب يوماً فقال: "سوف لن ألقي السلاح إلا إذا أقعدتني المنية أو تحقق النصر".[1]

وهكذا مضى سعد الذي كان شهماً وشجاعاً، ومحباً لأهله وأصدقائه.

-١٠-

قال الراوي: "خلال زيارتي لبيروت ربيع ١٩٧٤، التقيت بأحد رفاقه الذي عرفه عن قرب، فحدثني عن العملية الفدائية التي قادها ونفذها أخي سعد،

---

[1] نص من إحدى رسائله أثناء فترة عمله القتالي في منطقة كفر أسد بالأردن.

رغم أنه كان (مجازاً) في ذلك اليوم ١٩٦٩/٧/٣١، وأنه أبلى فيها بلاء حسناً، وأثناء العودة من تلك العملية، تصدى له ولمجموعته التي كان يقودها، ثلة من جنود العدو الصهيوني، وبدلاً من الانسحاب من المعركة غير المتكافئة (عدة وعدداً) أبى سعد أن يتراجع وأتخذ قراراً المواجهة، وتبادل الطرفان إطلاق النار، فيما استخدم العدو أسلحة متوسطة وأخرى ثقيلة، مما أدى إلى سقوط سعد جريحاً، وقد قيل إنه أصيب إصابة بليغة، وكان آخر كلماته أن أوصى رفاقه بأن يحاولوا الانسحاب، وأن يدعوه في مكانه، بعد أن رفض الإخلاء خشية أن يعيق أو يؤخر انسحاب مجموعته، وصفه رفيقه العراقي المقيم في بيروت بأن سعد أو سيف الدين هاشم وهو اسمه الحركي كان شجاعاً وكريماً. ويعده رفاقه مثلاً إنسانياً رفيعاً في الإيثار حتى آخر لحظة في حياته، فيما ظل دوره البطولي في ذاكرة المقاومة الفلسطينية شهيد العراق الأول بوصفه أول فدائي عراقي يقدم حياته ثمناً لحرية فلسطين.

-١١-

قبيل رحيل سعد بأسبوعين، كان أبي قد اشترى بيتاً واسعاً جميلاً في شارع الضباط، وكان أبي وأمي يمنيان النفس بأن سعد سيفرح بهذا البيت عند عودته إلى العراق في الأجازة المرتقبة، فيما تزامن انتقال العائلة إلى شارع الضباط في نفس الأسبوع الذي استشهد فيه الفتى سعد، فتحولت البهجة وانقلبت إلى مأتم كبير تتردد في جنباته أصداء النائحات حزناً على الذي غاب ونأى ومات غريباً.

-١٢-

قال الراوي: "خلال عامي (٧٠ – ١٩٧١) أقام أخي محمود معي في ناحية (ببحي) عشنا معاً في دار واحدة، وأمضى بصحبتي سنتين طالباً في

متوسطة الفدائي، نفس المدرسة التي كنت مديراً لها في قرية (جريش) [1] التي لم تكن تبعد عن مركز الناحية إلا اثني عشر كيلو متراً.

وقد حظينا خلال فترة وجودنا بأوقات طيبة، وبصحبة طيبة، واقترب كل منا من الآخر، في ظل رعاية ومحبة أهل المدينة ووجوه القوم فيها ابتداء بمدير الناحية (حمدان الدوري)، ومدير المكتبة العامة (حازم العلكاوي)، مروراً بالأسرة التعليمية وموظفي الناحية، وعموم الناس في بيجي وجريش.

وقد خصنا أولاد عبد الله العلكاوي بكرم الوفادة طوال فترة إقامتنا، وأصبح محمود فتاهم المدلل والأثير وكأنه واحداً من أبنائهم المقربين، فكان يمضي جل أوقاته بينهم، ولم تعد الدراسة لديه إلا واجباً ثقيلاً مفروضاً عليه، مما أدى إلى إخفاقه في السنة الأولى من دراسته في الصف الثالث المتوسط الذي بقي يراوح فيه زمناً. ولعل السبب المباشر في تعثره أنه كان أيضاً يعيش قصة حب كبيرة، وإن لم يفصح عنها. ولكنه في كل الأحوال كان أخاً مطيعاً وطيباً ووديعاً، وقد أكسبته دماثة الخلق وحسن السلوك، محبة جميع الأقران والأصحاب.



---

[1] قرية تضم عشيرة الجيسات (القيسية) ويطلق عليهم أيضاً (الكروية).

وقائع (١٩٧٠ — ١٩٨٥)

-١-

وهي الفترة الأخير التي أمضاها عز الدين محمود في العمل لدى الحاج مهدي صالح، بعد الانتقال من خان (دارة فتاح) إلى شارع الخلفاء (الجمهورية) حيث لم تعد التجارة تشترط مكاناً واسعاً بـ (حجم خان) بل أصبح كل الذي يحتاج إليه التاجر متجراً وجناحاً لعرض بضاعته، ويكفيه (قبواً) لخزن ما يفيض عن حاجته، وهكذا كان المكتب الجديد، طاولتان، إحداهما للحاج مهدي صالح وأخرى يشغلها المحاسب، فيما كان أبي كما هو حاله دائماً، منشغل في ترتيب وتغليف شحنات البضاعة إلى الزبائن والتجار والأسواق. وبدا العمل في المكان الجديد أكثر تنظيماً وأقل جهداً عن ذي قبل. وبسبب الرتابة التي اتسمت بها سنوات شارع الخلفاء (الجمهورية)، فليس ثمة من وقائع مهمة، على صعيد العمل.

-٢-

يقول الراوي: "يعدّ عام ١٩٧٣ من أسوأ الأعوام، إذ ارتحل فيه خال أبي عبد الجبار الطه الذي أصيب بمرض خبيث، في (البروستات)، وأذكر هنا، بأن أبي كان يحرص على زيارته في مستشفى مدينة الطب، بصفة مستمرة، وكنت أصحبه في زياراته هذه، وما من مرة يلتقي خاله إلا ويبكي فيها.

وفي أواخر عام ١٩٧٣ أيضاً، أنهى المرض العضال حياة مطني العساف، بعد معاناة طويلة جراء أوجاع الجسد العليل، وقد علمت بالنبأ الحزين أثناء إقامتي في مصر.

في طفولتي وصباي كنت أرقب إطلالته علينا في الكرخ؛ لأنه سيملأ

لياليا بمسامراته وحكاياته. وحين ولعت بالشعر البدوي، وجدت عم مطني مصدراً غنياً في رواية شعر البادية وتأصيل تراثه.

وقد سمعت منه عشرات الأبيات مع شروح مستفيضة لأصولها الاجتماعية والتاريخية طبقاً للأخبار الواردة عنها أو ما روي من ضروب الحكايات حولها. وإذا ذكر مطني العساف في مجلس أو ديوان، أثنى الناس عليه من عارفي فضله ومحبيه، فقد كانت (المحبة) التي يغدقها على أهله وأقاربه وجيرانه، وأصحابه وأصدقائه مضرب المثل السائر، شيمة، كرماً، ومحبة، لقد كان العم مطني روحاً عذبة مفعمة بالخير، تواقة للمعروف. وقيل أن شفافيته النفسية، وعواطفه الرقيقة تجاه الجميع هي إحدى خصائص بيت دخيل.

وسمعت من أبي أكثر من مرة وفي لقاءات عديدة بأن مطني يعني لديه الكثير، وكان بمثابة الأب الروحي له في طفولته، بعد أن اقترن بأمه وردة.

ولا ينفك أبي يوصيني وأخوتي، بأن أولاد مطني بمثابة أولاده، ويجب أن لا نفترق عنهم، بل يتوجب علينا أن نحافظ على صلة الرحم هذه حتى يظل بيت دخيل على الدوام قائماً ومستمراً في الظهور والبطون والأعقاب.

وتأخذ هذه الحميمية العميقة مدياتها الواسعة بين العائلتين في صلة المصاهرة بين البيتين (مطني وعز الدين). وأن الأوقات الطيبة التي يمضيها أبي في راوة هي تلك الجلسات العائلية التي يلتئم فيها الطرفان، للحديث والمسامرة عقب صلاة العصر.

إذ يطلب أبي، بتهيئة الشاي، الذي لا يحتسيه إلا بعد أن يدخل عليه عبد القادر والحاج كريم، وسلام ورحيم. وإنني أعتقد بأن أولاد عم مطني السبعة متعلقون بأبي كتعلق أولاده به، في التقدير والاحترام والرعاية.

-٣-

قال الراوي: في الثلث الأخير من عام ١٩٧٣ ودع الأهل الحاج صباح البازل الذي توفي في القاهرة، بعد مرور عشرة أيام من إجراء عملية جراحية في (المخ)، بعد إصابته بورم سرطاني. وقد رافقته طوال الأربعين يوماً التي أمضاها وزوجته (طليعة العليان) وولده (خالد) في مصر.

والحاج صباح شخصية فريدة الطراز، هوايته العجيبة الدعابة في كل الأوقات والأحوال. وقبيل رحيله بليلة واحدة كان يمازح الممرضة ويسألها بمرح طفولي: "هل أجد امرأة في مصر تقبل الزواج من رجل مشلول مثلي؟! فأجابته: "نعم، وأنا مستعدة.. أما قولك مشلول، فاطمئن أنها حالة مؤقتة، وستشفى، وتنهض على قدميك قريباً."

كان الحاج صباح في حياته ودوداً، مرحاً، كثير المقالب يفاجئ الناي بها، وهو يحاول إشاعة أجواء الظرف والفكاهة بين الأصحاب والأصدقاء وفي أوساط الأهل والأقارب، فقد قيل بأنه كان يزور زوجته في المستشفى عقب ولادتها بـ (البنت) رقم عشرة وكانت زوجته طليعة تتوجس خوفاً من احتمال أن يغضب أو يثور عليها، وهو الذي انتظر مجيء (ولد) له بعد سلسلة طويلة من الإناث.

وكانت المفاجأة، أن قال صباح لزوجته: "الآن أصبح عدد البنات عشرة، وأنا أريد منك زيادتهن اثنتين أخريين، حتى يكتمل العدد بـ (دستة) من البنات".

هكذا كان صباح البازل الذي ودع الدنيا ولم يتجاوز عمره الـ (٤٩) عاماً. عندما أبلغه الجراح بقرار إجراء العملية كان خائفاً، متردداً، وحين سألته عن سبب قلقه، قال:

"لو كنت مكاني لرفضت إجراء العملية، في عنقي دسته من البنات، فلمن أتركهن إذا مت، وليس لي إلا طفلاً صغيراً لا حول له ولا قوة"!

وهكذا رحل الحاج صباح، وقد رأيت نصف ابتسامة معلقة على شفتيه، وإلى جواره طليعة العليان، الزوجة الوفية والمرأة الأصيلة التي حاولت حتى اللحظة الأخيرة من حياتها أن تكون لبناتها وولدها أماً وأباً.

-٤-

قال الراوي: "لعل من أشق المواقف إيلاماً على العائلة هو غيبة هادي عبد الجبار، الذي لم يعد من حرب تشرين. في الجبهة السورية كان في ذاكرتنا شجاعاً، كريماً، شهماً، محباً للأهل حريصاً على صلة الرحم.

وفوجئت حال وصولي الشام [1] بوجود زوجته وولدها الرضيع (عمر) وكمال وأمه وهم بانتظار عودة الأسرى العراقيين من الأرض المحتلة بأمل أن يكون هادي واحداً من هؤلاء.

وفي يوم ١٩٧٤/٥/١٠ حطت طائرة الصليب الأحمر الدولي ونزل منها الأسرى العراقيون ولم يكن هادي من بينهم، وإنما كان الضابط الراوي الوحيد من بين هؤلاء الأسرى هو حروش إبراهيم العزاوي.

وبعد انتظار عشر ساعات تحت شمس مطار دمشق عدنا إلى الفندق يملأ قلوبنا الحزن والأسى، وحاولت وكمال أن نقف على حقيقة الأمر، فالتقينا بحروش ورفاقه الأسرى إلا أن أحداً منهم لم ينفِ أو يؤكد وجود هادي لدى العدو الصهيوني. ولكن الذي تأكدنا منه هو أن هادي كان بطلاً مغواراً خلال معركة تشرين (أكتوبر) على الجبهة السورية وهو يقود كتيبة قتيبة، وظل إلى

---

[1] كنت قادماً من القاهرة في ربيع ١٩٧٤، بعد أن أنهيت دراسة الماجستير، وجئت إلى دمشق لشراء سيارة شخصية قبل عودتي إلى بغداد.

آخر لحظة وهو يقاتل العدو الصهيوني قتالاً مجيداً ضارياً إلى أن أعطبت دبابته في المعركة وبعد أن جرح جرحاً بليغاً أفقده القدرة على الحركة، وعندما جاء من يخليه من أرض المعركة، رفض الإخلاء وآثر أن يستمر الجند بمقاتلة العدو، وهي ذات الرواية التي ترددت على لسان الجرحى الراقدين في مستشفى تكريت العسكري، الذين التقيناهم عقب عودتي من سوريا، والتي يؤكد أصحابها بأن (أبا إياد)، كان مثالاً رائعاً للبسالة الفريدة، والإيثار النبيل، وتلك كانت أبرز سجاياه التي عرف بها.

لم تغب عن ذاكرتي صورته الدافئة حتى يومنا هذا فقد أحاطني على الدوام بحنوه ورعايته، أتذكر يوم مرضت في طفولتي، وكيف كان يحملني متطوعاً على ظهره من (دربونة زنكو) إلى مستشفى خضر الياس، لتلقي العلاج. وليس هذا فقط، فقد كانت شهامته لا حدود لها إذ كان يتفقدني في كل وقت ينزل معنا (الشط). يسبح إلى جوارنا، ويتابعنا في الرواح والمجيء، يصطحبني صباح كل يوم إلى مدرسة الزوراء ويعود بي بعد انتهاء الدروس.

وحين جاءني إلى مصر شتاء ١٩٦٧، موفداً لإحدى الدورات العسكرية في القاهرة، ضمني إلى صدره بمحبة كبيرة وهو يحمل إلي أمتعة وهدايا، وكان يأتيني كل يوم إلى مصر الجديدة، ولا يعود إلا في آخر الليل وقد أمضينا معاً أجمل الأوقات وأسعدها ونحن نطوف القاهرة والإسكندرية، وكان قومياً عروبياً عاشقاً لمصر وشديد الإعجاب بجمال عبد الناصر.

أما على الصعيد العائلي، فلا أظن أن أحداً يمكن أن ينسى شيمة ونخوة (أبي أياد)، كما لا يمكن لأحد منا أن ينسى ذكرى الرجل الذي كان حضوره قائماً في حياتنا في كل الأحوال والمناسبات الاجتماعية، ويوم بلغنا بأن الدولة اعتبرته شهيداً بعد مرور سنتين على انقطاع خبر فقده، فإن الخبر هز أبي

وأفقده في تلك اللحظة قدرة الوقوف على قدميه، فهوى أرضاً وهو يغالب دموعه، وإلى جواره عم أمين، ومهدي وأنا.

-٦-

عندما أنهيت المرحلة الأولى من دراستي (الماجستير) عام ١٩٧٤، فرح أبي فرحاً عظيماً، واعتبرت أمي نجاحي والتفوق الذي حصلت عليه "بياضاً لوجه العائلة" على حد تعبيرها.

وكان أبي يشرح لي ما قام به من ترميم وتجديد للدار خلال السنتين التي غبت فيهما بعيداً عنهم. وأبديت إعجابي بما آل إليه البيت من منظر بهيج بعد عملية الإصلاح والبناء. وكذلك الحديقة التي شهدت عملية تجميل واسعة، من التشذيب والتهذيب والإنارة، وأشار أبي بيده إلى (نخلة) تقع في الركن الأيمن من الحديقة.

"هذه النخلة تم استزراعها قبل أيام. وأمامها سنوات طويلة قبل أن تنهض. وتؤتي ثمارها من بعدنا" فأجبت أبي على الفور: "العمر المديد لك، بل ستجني ثمارها بيدك".

-٧-

قال الراوي: "شهد عام ١٩٨٠، الكثير من الأحداث على الصعيد العائلي، وأذكر أنني كنت عائداً من لندن بعد أن أمضيت أجازة الصيف في (كاردف)، وفاتحني أخي محمود وهو يقلّني من المطار إلى البيت بأنه بصدد التقدم لخطبة ابنة مهدي عبد الجبار – محاسن – فأبديت فرحي وسروري بهذه الخطوة، لأن هذه المصاهرة تصل الرحم وتجدد علاقة القرابة بين الأسرتين التي كانت في أيام الكرخ عائلة واحدة.

وفوجئت بأن أمي تحاصرني بأسئلة متلاحقة، عن الزواج ومزاياه، وبأنني

أصبحت (شايب) ولابد أن أضع حداً لحياة العزوبية، ولم يعد هناك ما ينقصني، وأنا أحاول التملص من ملاحقتها شبه اليومية، وقد تضاعف إحساسها بهذا الموضوع، بعد أن تقدم محمود لخطبة محاسن، وهي تتساءل كيف يتزوج الصغير، ويمتنع الكبير؟!

ولم تطل حيرة أمي بعد أن أبلغتها يوم ٢١/١١/١٩٨٠، بأن تستعد منذ الآن لخبر يفرحها، فقلت لها، لا تتعجلي، كل شيء في ميقاته، ولن يطول الأمر.

وفي يوم ١٥/١٢/١٩٨٠، فاتحت أبي برغبتي الزواج من أستاذة زميلة تعمل معي في كلية العلوم، وليكن يوم الخميس المقبل موعداً للخطبة، وقد كان ولعله الزواج الوحيد الذي لم يجر الاحتفال به، في محيط العائلة، بناء على قرار مني شخصياً، وقد التمست أمي أن تتولى من جانبها إقناع شقيقاتي والنساء الأخريات الامتناع عن إظهار أي نوع من ضروب الفرح، كالزغاريد والأغاني، إذ كان رأيي أن اللياقة الاجتماعية تقضي تقدير الظرف القائم الذي تمرّ به البلاد والعباد جراء الحرب العراقية – الإيرانية لاسيما وأن هناك جار شهيد هو غزوان عبد الرزاق الذي لم تجف دماؤه بعد، وداره لا تبعد عنا إلا خطوات، فآثرت أن تجري مراسم الزواج بتكتم شديد، ماعدا مأدبة العشاء التي أقامها أبي والتي اقتصرت على عدد محدود من الضيوف في نطاق الأهل وبعض الأصدقاء.

وبسبب ظروف الحرب القاهرة، فإني فضلت اختزال ما يدعى بـــ (شهر العسل) بثلاثة أيام فقط (الأربعاء، الخميس، الجمعة)، دون الحاجة إلى تقديم أجازة اعتيادية، وباشرت العروس الدوام يوم السبت التالي، وكنت ونجلة آنذاك أساتذة في كلية العلوم بالأعظمية.

وقد فكرت منذ البداية بأن أشغالي الطابق الثاني من بيت أبي، قد لا يوفر

مكاناً مناسباً لأخي محمود الذي كان يستعد هو الآخر للزفاف؛ لذلك عرضت موضوع الانتقال إلى بيت مؤجر على أبي وأمي، وقد جرى كل ذلك برضى الأهل وموافقتهم وقد لمحت ظلال دمعة معلقة في عيني أبي وهو يودعني بباب الدار، وقال مداعباً: "الآن نستطيع أن نأكل الثوم بحرية".

-٨-

أما الأحداث الأخرى التي واجهت العائلة، فكانت التحاق أشقائي الثلاثة بصفة جنود مكلفين، وهو أمر جعلني والأهل نجرب ولأول مرة قلقاً موجعاً طوال سنوات الحرب، وعلى مدى أيامها ولياليها، وهذا حديث يطول لا توجزه الكلمات.

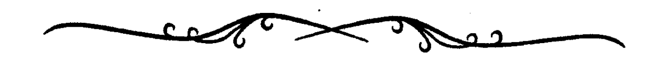
-٩-

قال الراوي: الأمر الأكثر أهمية في حياتنا العائلية هو يوم قرر أبي إحالة نفسه على التقاعد عام ١٩٨٥، بعد أن وجد أن الوقت قد حان لأن يستريح من عناء رحلة العمل الطويلة، بعد أن أمضى (٤٥) خمساً وأربعين سنة في السوق، منذ أن ولج لأول مرة خان الأغا الكبير سنة ١٩٤٠، مع كل ما رافق تلك السنوات الطويلة من ضروب التعب، والمعاناة، وتقلب الأيام والأحوال.

ويستذكر عز الدين محمود، وهو يتكئ على حافة تخت في مقهى بشارع الكسرة وهو بين أصحابه الجدد، ذكرى أصدقائه القدامى، الذين غيبهم الزحام أو طوى حياتهم الردى. وتطوف بذاكرته الأسماء والمرئيات، تفاصيل تلك السنوات العذبة المليئة بكل صورة الحياة، التي اختلطت فيها المرارة بالمسرة، والحزن بالفرح، والخاص بالعام. وتمر بخاطره كل تلك الأحداث والتواريخ.

وهكذا بعد أن قرر عز الدين محمود أن يحيل نفسه على التقاعد، آثر أن يكون حراً في قراره، أي أنه هو الذي اختار التوقيت بنفسه، بعد أن شعر أنه أدى ما عليه من التزام تجاه عائلته، وأنه كان صادقاً مع نفسه، أميناً مع الآخرين، وأنه راض تمام الرضى، بما توفر له من الرزق والثمرات، بما يسد أوده، وأن أعظم شيء ظفر به في حياته هو راحة الضمير، وطمأنينة النفس.

وهكذا ينتهي مشوار العمل، بعد (٤٥) خمس وأربعين سنة، دونما مكافأة أو راتب تقاعدي، ليبدأ عز الدين مشواراً جديداً في الحياة بين أهله وبنيه، فيجالس الأصحاب في الضحى، ويقيم في جامع صالح أفندي صلاة الظهر، ويعود للمقهى بين العصر والمغرب. وعندما داهمته الأوجاع في المفاصل، استعان بـــ (العصا) ليتوكأ عليها في الرواح والمجيء.



وقائع عائلية

(١٩٨٥ — ١٩٩٥)

-١-

ألقت الحرب ظلالها المؤسفة على دنيا الناس، وامتدت آثارها المأساوية إلى الحياة ذاتها، بعد أن ابتلعت جبهات القتال عشرات المئات من الشباب والفتية والرجال، ولم يعد في المدن إلا النساء والأطفال. وضاقت سبل الرزق، بعد أن علقت الحكومة مشاريع التنمية، فانخفضت الدخول، وتدهورت مستويات المعيشة، وتراجعت الطبقة الوسطى، وفقدت موقعها في السلم الاجتماعي، فيما شاعت القيم المضادة: الوساطات، الرشاوي، المحسوبية، المنسوبية، مما جعل ذلك كله بداية اضطراب وتفكك أضلاع المثلث كالذهبي: العدالة، الأمن، التعليم. وهي المرحلة الأكثر خطورة في تاريخ المجتمع العراقي، الذي بدأ يشهد تدني مستوى أداء القاضي والشرطي والمعلم. وسيكون لهذه الحالة بعد أقل من عقدين من الزمن وقعها الشديد على الدولة والمجتمع معاً بل وستكون واحدة من الأسباب الظاهرة والكامنة وراء الزلزال المأساوي الذي أوجد ثغرة هائلة الحجم نفذ منها العدوان الأمريكي خططه الغاشمة ضد العراق ربيع ٢٠٠٣.

-٢-

ومن مآسي الحرب العراقية الإيرانية ونتائجها على الصعيد العائلي، سقوط الخال عبود حمادي شهيداً، الذي قتل غيلة بالسلاح الأبيض. وبرحيل عبود فقدت أنا وخالد حبيب الصديق المحب والإنسان الرائع، الذي كان مزيجاً رائعاً من الاستنارة والعقلانية والثقافة الراقية، والنفس التواقة للمرح والظرف والطرائف.

ولا أظن أن واحداً من العائلة بلغ منزلته الفكرية، وهو العقل النابه المولع بالحوار، والذي يحترم الرأي الآخر طبقاً لدواعي الحجة والبرهان.

في ذات الوقت الذي كان شديد الصلة بعموم الناس، عبر علاقات واسعة مع كل الطبقات والمشارب والأجناس، فقد كان إنساناً اجتماعياً من الطراز الأول، محباً للأهل، وفياً للأصحاب وللأصدقاء، ومن أقواله الشائعة:

"إن أعظم ما في الوجود، المرأة، والسفر، والكتاب، وإنسان يحبك".

وهكذا حمل القدر الأعمى عبود الوديع المسالم، و(المتقاعد)، حملة إلى مواجهة الموت بعد أن ألقى به في آتون الحرب وويلاتها. هذا الرجل الذي لم يجرب ولو لمرة واحدة في حياته أن يرفع يده بوجه أحد.

من بين حشد الذكريات التي تكتظ بها الذاكرة، أنه لم يقطع رسائله عني طوال فترة دراستي في مصر، وكانت كلماته، أجمل الهدايا، انتظرها بفارغ الصبر، وقد نزل القاهرة مرات كثيرة، وله فيها أصدقاء وأصحاب ومن عادته أن يجلب معه حقيبة خاصة بالتجارة، تكون ملأى بغلالات وقمصان وزينة النساء.

وفي كل رحلة لمصر، يحاول أن يقف على ما تميل إليه السوق ومعرفة السلع التي تلقى قبولاً لدى الصبايا والنساء.

وقد حظى بشهرة واسعة بين أصحاب (البوتيكات) وتجار (اللنكة) [1] في منطقة العتبة الخضراء، ودعاني يوماً إلى محل يبيع الكشري [2] في نفس المنطقة، يعلق يافطة خط فوقها "من أجل رفع مستوى الكشري في العالم"، كان صاحب المطعم من معارفه، فأهداه (جاكيت)، قال له: "جاءتني خصيصاً من ألمانيا". فما كان من المعلم (سحس) إلا أن دعانا إلى وجبه ساخنة،

---

[1] الملابس المستعملة.

[2] لا يزال المطعم قائماً حتى الآن.

وعندما انتهينا، همس عبود في أذني بأن (الجاكت) كلفه مبلغ ثلاثمائة فلس ابتاعه من (تحت التكية).

وقد (بارت) بضاعته التي حملها في إحدى سفراته، فلم يجد مخرجاً من هذا المأزق بعد أن عزف بائعو (البسطات) عن شرائها فاضطر إلى إقامة – بسطة – عند سور الأزبكية بجوار دار الأوبرا المصرية، ولم يمض وقت طويل من النهار حتى تمكن من تصريف البضاعة، وبأفضل الأسعار.

وأياً كان الأمر فإن رحيل عبود المبكر ترك غصّة في قلوب محبيه من الصحب والأهل، وهو الأكثر حضوراً لدى أبي من بين (الخوال) الآخرين، بسبب وجوده شبه المتصل في الخان والبيت وهو الجليس الأنيس الذي يجتذب بحكاياته ونوادره الأفئدة والأسماع. وعندما بدأت الحرب، أصيب بما يشبه القلق النفسي المستديم بعد أن أدرك بأنها حرب مفتوحة، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنهاية عملياتها، مما ولّد في نفسه توتراً وخوفاً، من أن أولاده الثلاثة بشير، مثنى وليث لن يكونوا في منجاة منها بل قد يكونوا وقوداً لنارها، ولم يخطر على باله يوماً وهو الرجل الكهل المتقاعد أن يكون هو ولا أحد غيره ضحية من ضحاياها.

تلك الحرب البغيضة التي فرضتها على العراق التجربة الإيرانية الجديدة، بعد أن حاولت بغداد بكل الوسائل احتوائها وتجنب ويلاتها.

وقبل أن يواري جثمان عبود التراب في مثواه الأبدي، رفع سعيد شاكر الحبيني[١] بحضوري غطاء (التابوت) للتأكد من هوية الجثة،[٢] وقد هالني وأبكاني ما رأيت، فقد احتضن عبود بيديه موضع الإصابة وهي عبارة عن

---

[١] ابن عمة عبود.

[٢] جرى ذلك في (زاوية الصلاة) وهي عبارة عن حجرة جوار مقبرة راوة في الجانب الغربي من راوة في شتاء ١٩٨٦.

شق طولي من أعلى الصدر إلى أسفل البطن، وبدا وجهه ممتلئاً بالرعب القاتل والفزع الأعظم مما يدل على أن القتل كان مفاجئاً بسيف أو حربة طويلة حادة. عندها تفاقمت المأساة وأنا أتأمل الجرح الطويل النافذ، لإنسان وديع مثل الخال عبود لم يجرب في حياته السلاح، ولا رفع يده بوجه أحد من البشر، وهكذا تطوى صفحة إنسان رائع كان صديقاً للجميع.

-٢-

قال الراوي: ما أن وضعت الحرب أوزارها، وتم تسريحه من العسكرية، حتى طفق يوسف يبحث عن عمل يلبي طموحه، وقد وقع اختياره على محل شارع الجمهورية، وقد وافق فاروق مهدي فور مفاتحته برغبة أخي على أشغال المحل المذكور الذي ظل مغلقاً وشاغراً لفترة طويلة، فأعاد يوسف افتتاحه وباشر العمل فيه عام ١٩٨٩، وبعد مرور سنتين استطاع بمثابرته وحرصه، أن يقطع شوطاً معقولاً في تسويق وتجارة الخيوط وملحقاتها، وأن يجد له موضعاً في السوق، وقد عرف عنه منذ أن باشر عمله في المحل بدماثة الخلق وحسن المعاملة، واستقامة السلوك، وتعد هذه السجايا الأسس الضرورية التي تنهض عليها سمعة أي تاجر لدى الزبائن وتجار السوق التي تعني توفر (الثقة) بين الطرفين. وقد تعرض يوسف إلى أكثر من عملية نصب واحتيال خسر فيها الكثير من البضاعة والأموال، لكنه تمكن من احتوائها بعزم وصبر وإيمان، وهو يحاول أن ينهض من تلك الكبوات التي تسبب فيها المدعون والأشرار.

وتخلى عن محل الجمهورية لشقيقه محمود، وتفرغ لإدارة ورشة الخيوط في الأعظمية التي أقامها مع شريك له، والتي تعرضت هي الأخرى إلى عملية (سطو) من قبل بعض الشقاة، وعاد صابراً محتسباً مرة أخرى

ليواصل شق الطريق ما بين بغداد وعمان استيراداً لبعض المواد والسلع الغذائية، ولأجل متابعة عمله، اتخذ له مكتباً في حي المستنصرية.

-٤-

قرر عبد الكريم عام ١٩٩٠ أن (يدخل الدنيا)، فاختار يوماً عزيزاً علينا هو يوم ١/١١ لـ (دخلته) وليلة زفافه، وكان الحفل الذي أقيم في حديقة دارنا في الأعظمية، من الحفلات البهيجة لاسيما وأن (العريس) نفسه كان يمسك برأس (الدبكة) وكان (الراقص) الأول خلال فعاليات الفرح العديدة التي شهدتها تلك الليلة الشديدة البرد، فكان كريم ينتقل هنا وهناك بين المدعوين، وهو يتمايل طرباً تعبيراً عن روحه المرحة.

وكريم يتميز عن أخوته الآخرين بمن فيهم أنا. بميزة الاستقلالية النسبية في قراراته، فهو قد يأخذ رأيك في أمر ما، ولكنه في الحقيقة يكون قد حزم أمره على أمر آخر. واستقلاليته التي أتحدث عنها قد تكون مغامرة أو تمرداً، فقد بدأ هواية (الطيور) في وقت كان كل من في البيت يعارضه، وبنفس القدر من التمرد يوم بادر إلى اختراق الحاجز العائلي، فقدم أوراقه إلى معهد الفنون الجميلة، بعد أن وجد لديه إمكانات فنية تؤهله من خلال تجاربه في المسرح المدرسي أن يكون ممثلاً ناجحاً. ومن صور تمرده الأخرى، سفرته المفاجئة إلى سوريا، ولم يكن يحمل في جيبه إلا مبلغاً متواضعاً لا يسمن ولا يغني.

وعبر عن موقفه المستقل حين أصر على الزواج طبقاً لرأيه الخاص واختياره الشخصي، وقد دافع عن موقفه وثبت عليه، على أن (تمرداته) التي لا حصر لها، إنما تجئ في رأيي، من خلال سمة الاستقلالية التي فطر عليها، والتي منحته قدرة قد لا تتوفر لدى أشقائه الثلاثة، وهي قدرة الاعتماد

على النفس، التي بدأها لأول مرة من خلال مشروعه الصغير وهي (ورشة) تصليح أجهزة تجفيف الشعر التي كرس لها وقته لسنوات عديدة. وقد منحته الورشة الصغيرة فرصة واسعة لمعرفة نماذج عديدة من الناس، وزودته بخبرة التجارة في واحدة من مقدماتها الضرورية، وهي السمعة والثقة، وحسن المعاملة، فاجتذبت إليه كثيراً من الزبائن، واتسعت حلقة العلاقات الاجتماعية من حوله.

ولأن عقله أكبر من عمره، فقد تمكن بفطنته أن يفتح أفقاً آخر لعمله على مدى السنوات اللاحقة لورشة الأعظمية الصغيرة.

ولأنه أخي قد لا أجد فيه عيوباً حقيقية، ولعل (عاطفيته)، التي قد تخرج على ما هو مألوف في حياتنا، قد توقعه أحياناً ببعض الأخطاء غير المدروسة، منها "الاندفاع" غير المحسوب النتائج. والتي غالباً وفي عمومها تأتي من خلال ميله القديم للمغامرة.. وفي السنوات الأخيرة أخذ يتحسب لهذه الناحية ويجري تدقيقاً لخطواته قبل أن يتخذ قراراً فيها.

ولأن العاطفة، والحس الفني لم يغيبا عن مزاجه، فهو يحاول أحياناً تجديد حياته بطريقة ملونة، يتجاوز فيها رتابة العمل نحو تربية الطيور واقتناء الكلاب، والتلهي بـــ (الببغاء)، وإشباع هواياته الأخرى، كصيد السمك، والبحث عن (الأنتيكات). ولعل أعظم إنجازاته على الصعيد الأسري الصغير هو "أحمد" الذي فاق بـــ (شخصيته) المتماسكة والجريئة جميع أقرانه ولعلّه صورة أخرى لأبيه، (ومن شابه أباه فما ظلم).

وعدا هذا وذاك، فإن الجانب الآخر لشخصية كريم هو الجانب الإنساني، الذي لا أود التنويه به أو الخوض في تفاصيله والذي تعده العائلة وأبي على وجه الخصوص، الرصيد الأعظم الذي تستمد منه النفس الإنسانية إشراقتها في الحياة.

نعود مرة أخرى إلى حفل الزفاف، فقد مال أبي وهو يلتف بـ (عباءته وفروته) إلى عم أمين تحت الخيمة في حديقة دار الأعظمية وهو يقول له: "الحمد لله لم يبق إلا يوسف". فأجابه عم أمين: "بحياتك إن شاء الله".

انخرطنا نحن الأشقاء الأربعة متجاورين في حلقة (الدبكة) لمحت أمي من بعيد، وهي تومئ بيديها تطلب مني أن أوافيها، وهي تقف في الباب المطلة على الحديقة وما أن جئتها أستطلع الأمر حتى أخذتني من يدي جانباً وهي تقول بما يشبه الهمس: "يا ابني العين مفتوحة عليكم، لا تنفردوا أنتم الأربعة وحدكم، لا تظهروا أنفسكم بهذا الشكل".

خففت من هواجسها وعدت ثانية إلى حلقة (الجوبي). قبل أن ينتصف الليل، قفز العريس إلى السيارة بجوار عروسته. وانطلقنا وكان أمامنا وورائنا، العديد من السيارات وما بين الزغاريد والهوسات، دلفنا إلى باحة فندق بابل، جدد الشباب في المدخل مراسيم الزفاف مرة أخرى، فعقدوا حلقة (جوبي)، تلتها الهوسة وهم يرددون. "شايف خير وتستاهلها، أنت وليد وهي بنية".

-٥-

بعد أن استطلعنا قطعة أرض أخي سعد في منطقة خان ضاري، تمنى أبي يومها، وهو يحدثنا (أمي ومحمود ويوسف وأنا) لو أن لديه مالاً لبادر إلى تشييّد مسجد صغير على هذه القطعة يحمل اسم الشهيد سعد، تخليداً لذكراه.

ويبدو أن يوسف احتفظ بتلك الأمنية في ذاكرته ووجدانه منذ عام ١٩٩٠. وفي الوقت الذي انشغل فيه الأشقاء الثلاثة، بهموم الحياة وجزئياتها اليومية، فإن الشقيق الرابع، كان يضع (المسجد) في حساباته، وهو يقلب موضوعه بين اليمين والشمال، ساعياً إلى تحقيق حلم أبيه.

وهو ما عزم وعمل عليه طوال السنوات الخمس التالية، إلى أن صار بالإمكان الشروع في تنفيذ الفكرة على مساحة تزيد على مساحة قطعة خان ضاري، وفي مكان تلح فيه حاجة الناس إلى المسجد، وهكذا حول الشقيق الأصغر أمنية أبيه إلى واقع ملموس. ففي ربيع ١٩٩٥، أقيم مسجد الشهيد سعد عز الدين الراوي فوق هضبة مجاورة لديوان البو عبيد في راوة. وعندما يدركك فرض صلاة وأنت تعبر الجسر صوب المدينة، فإنك تسمع أول ما تسمع الآذان ينبث بصوت عبد الكريم مطني آت عبر الأثير من مسجد الشهيد سعد عز الدين الراوي.

-٦-

الفرح الغامر يملأ قلب أبي وأمي ومن حولهما نحن الأشقاء الأربعة وشقيقاتنا الست، في قافلة من السيارات المتعاقبة صوب راوة في رحلة مفعمة بالغبطة والمسرات لأحياء ليلة زفاف يوسف. ولم يتوقف أحد من الأولاد والأحفاد عن إظهار ضروب الطرب والغناء طوال الطريق، وحين ارتقينا الهضبة ونزلنا دار أبي تواصلت الأهازيج، وتعالت زغاريد النسوة، ولم يعد أحد من الآتين يفكر براحة من عناء الرحلة، أو من وعثاء الطريق، فالجميع القادمون من بغداد والمقيمون في راوة انضموا إلى دائرة (الجوبي)، لم يبق أحد خارجها، نساء ورجالاً الشيوخ والعجائز وفي المقدمة منهم الصبايا والأولاد.

وتجدد الفرح عقب العشاء، يوسف يحاول كعادته أن يشاغل نفسه، بعيداً عن عيني أبي، يمتص سيجارته بأنفاس متلاحقة، ونحن منغمرون في حلقة (الجوبي)، كان كريم أكثرنا حيوية ونشاطاً وسبقه محمود الذي يجيد هز كتفيه هزاً راقصاً من دون معرفة بإيقاع الخطوات، فيما كنت أحاول مجاراة

الشباب في ضبط الحركة. وكان (فرح) يوسف الذي أقيم في راوة ربيع ١٩٩٣، من الليالي السعيدة في تاريخ عائلة عز الدين محمود.

-٧-

أحدث رحيل مهدي عبد الجبار المفاجئ شتاء ١٩٩٣، صدمة كبيرة حلت بالأهل والأقارب والأصدقاء، وعندما وري جثمانه للتراب، كان أبي وعم أمين يغالبان دموعهما وهما يودعانه إلى الأبد. وحين عدنا من مقبرة (محمد السكران)، لم يكف عمي عن إلقاء أسئلة الموت بالتياع وأسى، فيما كان أبي يردد بين حين وآخر: "إنا لله وإنه إليه راجعون".

أما أنا فكنت في حالة من الوجوم والحزن الشديدين وأنا أستعيد ذكريات متناثرة، متباعدة عن سيرة (أبي إحسان)، الذي عرفته عن قرب منذ طفولتي في الكرخ، يوم كان يضمنا بيت واحد في (دربونة زنكو) ورافقته في الكثير من جولاته ولياليه، وأحببته أخاً كبيراً وصديقاً حميماً.

مهدي عبد الجبار الذي أشقاه المرض في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ظل صابراً وشجاعاً، احتفظ برباطة الجأش، وهو يصارع آلامه المبرحة ببسالة فريدة، لم يتخل عن ابتسامته وتفاؤله في أشد حالات الشقاء الإنساني حتى عندما بترت ساقاه.

منذ صباه المبكر اعتمد على نفسه، فتقلب بين العديد من المهن والأشغال، من عامل كادح وأجير، وصاحب (بسطة)، إلى تاجر معروف له اسم في السوق، يثق به الناس، وعرف الحياة بكل ألوانها وصفحاتها، عاشها فتى، وشاباً ورجلاً، وتذوق حلوها ومرها، وجرب العوز والحاجة وضيق ذات اليد، مثلما تنعم بمباهج الدنيا ورفاهية العيش.

وجنى بمثابرته وتعبه أموالاً وفيرة جمعها خلال عشر سنوات من عمله

في الشورجة، وذهبت كلها في طرفة عين، بعد أن أتى عليها في ليلة من ليالي عام ١٩٥٨ حريق، لم يبق من ثروته إلا الذكرى والرماد.

وخرج من كارثة الحريق، صفر اليدين، خال الوفاض، لكن ضياع كل شيء على هذا النحو المأساوي، كان اختباراً بالغ الصعوبة، فأما أن ينتهي جزعاً متخاذلاً، أو يحاول أن يبدأ من جديد، أو حسب تعبير أبي إحسان من تحت الصفر! فاختار مواجهة الواقع المرير، وعدم التسليم بالهزيمة.

وهكذا بدأ مهدي يلملم نفسه، وهو يسعى إلى تخطى الفاجعة فأوجد له محلاً في السوق البهبهاني، حيث وضع خطوته الأولى واستطاع بعد عشرين سنة من العمل الشاق في السوق أن يقف على قدميه مرة أخرى.

وبعيداً عن العمل والتجارة هناك حياة أخرى، لا بيع فيها ولا شراء، وهي عاطفته العروبية الفياضة المشاعر، منذ أن تطوع بكتائب المجاهدين فدائياً من أجل فلسطين سنة ١٩٤٨، وظل يقاتل الصهاينة هناك مع رفاقه العرب من أقطار الوطن العربي الأخرى.

وظل حلم مهدي عبد الجبار معلقاً بوحدة العرب الكبرى وبتحرير فلسطين، وقد لحقه أذى كبير جراء عقيدته القومية، من الملاحقة والاعتقال والمراقبة، وكان الحريق أحد نتائجها الوخيمة، لكن الشدائد لم تزده إلا ثباتاً على مبادئه التي آمن بها منذ صباه وحتى رحيله الأبدي.

ومن كريم سجاياه: حنوّه على الأقارب ومتابعته شئون العائلة، والالتزام بالواجبات الاجتماعية إلى جوار قيم الشهامة والمروءة والسخاء التي يتحلى بها، وعدا هذا وذاك فإنه كان رجلاً متفتحاً، مرحاً.

-٨-

قال الراوي: وتأتي نازلة الموت بأوجاعها المهيضة، فيختطف الردى

عمي أمين في الليلة الأخيرة من عام ١٩٩٤، بعد أن أخذته غيبوبة لم تمهل قلبه الواهن طويلاً، يومها قال أبي: "لقد زالت الدنيا، وراحت أيامها". بهذه الكلمات ودع أبي أخاه الوحيد، وهو يحاول أن يتكأ على عصاه، فلم تقو ساقاه، وهو يرتجف جزعاً، فكاد أن يهوي على أرض المستشفى. وقبل رحيله بحوالي ستة أشهر، كنت وأخي كريم في زيارة له، وفوجئنا به فور دخولنا الدار ممدوداً في الرواق، وثمة جرح في مؤخرة رأسه ينزف بغزارة فحملناه إلى مستشفى النعمان وأجريت له الإسعافات اللازمة.

ومن المفارقات المحزنة، أن المضمد الذي تولى معالجته، أعتذر لنا عن عدم وجود مخدر موضعي ونقص في الخيوط الطبيعية مما اضطره إلى خياطة الجرح بخيط عادي، ودون مخدر، وقد تحمل عمي الآلام بصبر عجيب.

وقبل يومين من حادثة نقله إلى مستشفى مدينة الطب، وجدته واهناً وعليلاً. وكان حديثه ينصرف بالكامل عن (هبة) وهو يبدي فخره واعتزازه بها، ويشيد بذكائها، وتفوقها الدراسي.

وكان لوجود هبة معنى جديداً في حياة العم فقد أضفت على الأسرة أياماً هانئة بعد سنوات طويلة من المعاناة والألم جراء الوضع الصحي لمخلص وعلته المزمنة التي استلبت عافية عمي، بعد أن أوجعت قلبه وملأت حياته بهموم يومية، ومعاناة مستديمة. لم تمض فترة طويلة على آخر زيارة لعمي حتى فوجئنا بإصابته بنوبة من فقدان الوعي، فسقط مغشياً عليه، وأسرعنا نحن الأشقاء الأربعة (محمود، كريم، يوسف، وأنا) فحملناه إلى مستشفى النعمان، ولم يلبث إلا ساعة واحدة فيها، بعد أن قرر الأطباء بأن حالته تتطلب نقله فوراً إلى مدينة الطب خيث تبين بأن حالته المرضية متأخرة، ولم يعد أمام الأطباء حيال هذه الحالة إلا الانتظار، على أمل أن يستعيد وعيه ويخرج من الغيبوبة.

بعد مرور ثلاثة أيام على رقاده. فتح عينين حائرتين غارقتين بالدموع وهو يطوف بهما أرجاء الحجرة لعله أدرك في تلك اللحظة التي لم يعد فيها قادراً على الحركة والكلام، إنه يحاول أن يقول شيئاً ما بعينيه بعد أن عز عليه الكلام بأنه ينتظر ثلاثة وجوه كانت غائبة في تلك اللحظة غنية ومخلص وهبة، ليلقي عليهم السلام أو تحية الوداع، قبل فوات الأوان. وقد لمحت ظل ابتسامة عالقة على طرف فمه، في آخرة تلك الليلة أغمض السيد أمين عينيه المليئتين بالدمع لآخر مرة وإلى الأبد.



ما قبل الختام

(١٩٩٨ – ٢٠٠٣)

-١-

. قال الراوي: في وقت مبكر من يوم ١٩٩٨/١٢/١٦ وقبيل موعد السفر إلى طهران بساعة واحدة. مررت بدارنا في الأعظمية، إلتقيت الأهل، قبلت يديْ أبي الذي ضمني إلى صدرِه بحرارة. وحدثني عن مهمتي الجديدة وأهمية خدمة الناس، وتلبية احتياجاتهم والسهر على مصالحهم، .ثم صافحني وعانقني وهو يحاول مداراة دموعه، فيما أصرت أمي أن ترافقني وأخوتي إلى الحدود.

-٢-

بغداد تشرين ثان ١٩٩٩

الأسبوع الأول

· عقب عودتي من طهران لتمضية الأجازة السنوية في بغداد فوجئت بأبي طريح الفراش، وأنه لا يستطيع تحريك جسده، وأنه يعاني آلاماً مبرحة جراء (كسر) في (الحوض)، بعد أن انزلقت قدماه وهو يهم بالوضوء.

وقد صدمني هذا المشهد وآلمني كثيراً، ويأمل الأطباء بأن حالته ليست مقلقة، وأنه سيستعيد عافيته ولكنه يحتاج إلى وقت طويل. عندما دخلت عليه حاول أن يعتدل فلم تسعفه عافيته، عانقني بحرارة وبكى. وقد وجدته واهناً، نحيلاً، خائر القوى، لكنه يلوذ بالصبر الجميل.

الأسبوع الثالث

استرد أبي عافيته النفسية، وأصبح متفائلاً بعد أن أبلغنا الطبيب المعالج

التئام (الكسر) وأن بوسعه أن يمشي بواسطة (العكاز) ويتعين أن يتكأ عليه أولاً، حتى يستعيد قدرته الطبيعية على المشي الحر. وجدت أبي قد تخطي حاجز الإحباط إلى الأمل وعاد إليه شئ من مرحه المعهود.

كرر أبي حديثه عن أخوتي وعني وهو يقول: "ليشهد الله عليّ بأنني راض عنكم جميعاً، فقد بررتم بي وبأمكم وأهليكم، وأكرمتمونا في حياتنا، وأسأل الله أن يوفقكم وأولادكم وذرياتكم".

لمست مدى الجهد الذي بذله أخوتي (محمود وكريم ويوسف) تجاه أبينا، وعلى نحو خاص يوسف الذي لازم أبي طوال فترة مرضه، ورقاده، حتى أنه تفرغ تماماً لخدمته وبقي إلى جواره، وأنه يتواصل مع أبيه في السهر على راحته لتلبية احتياجاته، ويحمله ومحمود وولداه علي ومحمد إلى حيث يقضي حاجته ومعاونته في الاستحمام عدا خدمات العلاج الطبيعي التي وفرها يوسف (ممرض، وممرضة، وأجهزة الخ).

لم يدع يوسف وسيلة تضمن راحة أبيه أو تخفف من آلامه إلا وسعى إلى توفيرها. وقد ألححت على يوسف أن يعود إلى مكتبه ومباشرة عمله بعد أن انقطع تماماً عن مزاولة مهامه منذ أربعة أشهر، بعد أن قام بواجبه تجاه أبيه على أفضل وجه.

بغداد حزيران ٢٠٠٠

بعد غيبة تزيد على ستة أشهر، عدت إلى بغداد من طهران في أجازة لمدة عشرة أيام، أمضيت معظم الأوقات قرب أبي، وقد وجدته تعافى نسبياً، إلا أنه لم يتخل عن (العكاز). فهو لا يزال يخشى أن لا تعينه ساقاه على معاودة المشي الطبيعي أو الحركة الحرة فأصبح رهين البيت لا يبرحه، وإن كان قد أمضى أيام العيد في راوة، بعد أن ألح عليه أخوتي، في محاولة لتغيير الأجواء، وتجديد نفسيته، لكني وجدت أبي شارداً، مع ميل شديد إلى

الاسترخاء والنوم، وأنه لم يعد يطيق الضجيج من حوله الذي يتسبب فيه أحفاده مما يؤثر على مزاجه النفسي.

أما عن أمي فقد وجدتها واهنة جسداً وروحاً، وكأنها تمر بأزمة نفسية، وقد توالت عليها نوبات (الضغط) وصعود معدلات (السكر) وأن وجهها امتلأ بالغضون والتجاعيد وكأن عمرها تضاعف سنوات خلال الأشهر الستة الماضية.

وطوال الأيام العشرين التي أمضيتها في بغداد كانت لا تبارح الفراش إلا لماماً، وهي في حالة صحية سيئة. هذا وغيره أصابني بالأسى والكآبة، مما جعلني أعود إلى طهران، بعد أن امتلأ قلبي بالأحزان، لاسيما بعد أن علمت برحيل ابنة عمي (هبة) ذلك الملاك البرئ الطاهر. فقد ارتحلت عقب أربع سنوات من رقاد مستديم جراء إصابتها بـــ (تلف في خلايا المخ) وكانت حالتها المرضية أحد الأسباب التي دفعتني إلى تأليف كتاب (وردة الغد)، [1] بوصفها إحدى ضحايا الحصار الشامل الذي طوّق الحياة في العراق، وتسبب في قتل مئات الآلاف من أطفال شعبنا.

وقد صحبت نجلة والأولاد إلى مقبرة العائلة في (خان ضاري) وألقيت على (هبة) السلام.

-٤-

٢٠٠٠/٩/٤

أجريت مكالمة هاتفية مباشرة مع راوة، وقد ردت على أمي التي فوجئت، ولم تصدق للوهلة الأولى، أحسست بسعادتها الغامرة، وهي تدعو لنا بالتوفيق والصحة.

---

[1] صدر عن وزارة الثقافة بغداد ١٩٩٩، وقد قررت الدولة ترجمته إلى الإنكليزية والفرنسية بوصفه إحدى الشهادات الحية على مأساة الحصار الذي فرضه العدوانيون على بلادنا وقد عرضت فيه لحالة هبة الصحية بوصفها إحدى ضحايا العدوان الأمريكي على العراق فيما سميّ بحرب الخليج الثانية.

تحدثنا طويلاً، وهي تسألني عن أحوالنا، وعن نجلة وزينت وعزاوي ولا تكف عن دعواتها، وتنشدني الله في صحتي، وتوصيني أن أقلع عن التدخين، وهي لم تنس أن تسألني عن الصداع النصفي هكذا هي الأم ملمة بكل التفاصيل التي تتعلق بأولادها، حتى وإن هرموا وشاخوا.

قالت: إن صوتك أعاد الطمأنينة، وأن بوسعها الآن أن تغفو ملء جفونها، بعد ليالي طويلة من القلق، وعندما رجوتها أن أتحدث مع أبي قالت:

. "إن الحركة تشق عليه للوصول إلى الهاتف، وأنه يستلقي الآن على فراشه، ويسلم عليك ويدعو لك".

-٥-

الأربعاء ٢٠٠٠/١٠/١١

التقيت أبي عانقني بحرارة وضمني إلى صدره وهو يردد الدعوات والتمنيات. أمضيت أسبوعين جوار أبي وأمي. وأظن أن صحتهما الآن أفضل حالاً من المرة السابقة، أما أبي فلا يزال يستعين بـ (الحجلة) في تثبيت خطواته، لتمكنه من المشي الوئيد.

ورأيت وجه أمي أكثر نضارة مما كان عليه من قبل، وأن السر في ذلك هو الراحة النفسية، قبل أي شيء آخر، لكن الالتزام بتعليمات الطبيب والمحافظة على مواعيد تناول العلاج أمر مهم، وهو ما كنت أرجوه منها وألحّ عليه دائماً.

-٦-

طهران ٢٠٠١/٣/٥

عصر اليوم، الأول من عيد الأضحى المبارك، اتصل هاتفياً أخي يوسف، وتحدثت إليه، وأمي، وأخي، محمود، سعدية، ثم جاء صوت أبي وهو يقول:

"طمئني عن صحتك وأحوالك وأسرتك"، قلت: "نحن مشغولون بك، ونسأل عن صحتك" قال: "الحمد لله أنا بخير الآن، فقط أريد أن أسمع صوتك وأطمئن عليك، ونحن جميعاً مشتاقون لرؤياكم، بشرني متى تأتي إلى بغداد".

قلت: قريباً جداً، في نيسان القادم إن شاء الله، أمي كعادتها تفتح الكلام بالسلام الحميم وهي تقول: "هلا يابعد أمي وأبوي، هلا يا بعد روحي وعيني. أسألها عن صحتي فتجيبني: "إذا أنتم بخير نحن بخير، صحتي من صحتك".

-٧-

بغداد ٢٠٠١/١٢/٢٢

على غير عادته بكى أبي وأجهش هذه المرة وهو يحضن وجهي، وسألني مباشرة: "عن موعد عودتي النهائية إلى العراق؟!" ومتى تنتهي هذه الرحلة البعيدة والطويلة معاً؟! ويسألني عن أحوالي في طهران، ثم قال:

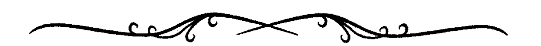
"أنا سعيد وفخور بك، عندما أسمع الناس في الجامع ومن الأصدقاء يتحدثون عنك بالخير، أوصيك يا ابني بالناس كل الناس، أحسن معاملتهم، وعاونهم، ولا ترد أحداً، وأقول لك وأشهد الله، بأني راض عنك كل الرضا، وربي وقلبي راضيان، وأدعو الله لك السلامة والتوفيق، كنت حريصاً أن أمضي بعض الوقت الذي اقتطعه من مؤتمر الخارجية، لأكون قريباً من أبي وأمي وأخوتي، لحظتها شعرت بأن الوظيفة تقطع أعمارنا، وبسببها نعاني الغربة ومفارقة الأهل والأحباب.

-٨-

بغداد ٢٠٠٢/٩/٣٠

أمضيت في دار أبي ثلاث ليال، ونحن نتسامر بحضور أخوتي محمود وكريم ويوسف وشقيقاتي الست، وعموم الأبناء والأحفاد وقد استعدت بهذه

(اللمة) الحلوة، أيامنا الجميلة الأولى في السنوات الفائتة. لم يعد بوسعنا إلا اجترار الذكريات الماضية، فلا شئ في الوجود قابل للديمومة، وبقاء الحال من المحال.



عام الحزن

٢٠٠٣

-١-

قال الراوي: عقب العدوان الأمريكي الغاشم عدت إلى بغداد من طهران عبر سوريا يوم ٢٠٠٣/٦/٦، وقد صدمتني أهوال الكارثة التي حلّت بالوطن. وأنا أرى وأشاهد الآثار المدمرة طوال الطريق من القائم حتى بغداد.

وجدت الأحزان تملأ قسمات وجه أبي وأمي. فقد قالت أمي وهي تغالب دموعها: "أرأيت يا ابني ماذا حلّ ببغداد، فالأشرار دمروا كل شيء فيها، ولوثوا كل ما هو جميل في العاصمة".

في اليوم التالي أجريت لي مقابلة في ديوان وزارة الخارجية من قبل لجنة كافة أعضائها من الأمريكان، سألوني عن اسمي الكامل. شهادتي العلمية، تاريخ التعيين، الفترة التي أمضيتها في طهران، عدد سنوات الخدمة الكلية في الدولة. الموقع الوظيفي السابق.

قال رئيس اللجنة: بوسعك أن تقدم لنا التماساً خطياً تطلب فيه البقاء في موقعك الوظيفي، وأن اللجنة ستنظر في طلبك؟! أجبتهم وأنا أشعر بالغيظ وكدت أصرخ حيال هذه المساومة الساذجة والرخيصة معاً.

يبلغ عمري الآن اثنان وستون سنة، وأن مجموع خدمتي بلغ سبعاً وثلاثون سنة، ولا أجد سبباً موضوعياً للاستمرار في الوظيفة، فمن كان في مثل سني لابد أن يكون متقاعداً الآن، كما أنني لا أجد أيّ مسوّغ يدعوني على تقديم التماس للجنة أجنبية فرضها الاحتلال....

وإزاء ذلك كله، فأنا أفضل أن أقدم استقالتي الآن، لأتفرغ للعمل بمشاريعي العلمية؛ لأنني وقبل أيّ شئ أحمل درجة الاستاذية (بروفيسور) في الفلسفة منذ نيسان ١٩٨٩، وهذه نماذج من مؤلفاتي أضعها أمامكم.

مال رئيس اللجنة إلى الأعضاء وتهامسوا فيما بينهم. ثم قال: إذن عليك أن تسلم اللجنة جواز سفرك الدبلوماسي.

قال رئيس اللجنة: هل تريد أن تقول شيئاً آخر، قلت: بلى، إنني غير نادم على استقالتي،[١] وغير نادم على أيّ عمل قمت به من أجل بلادي.

-٢-

قبل أن أعتزم الرحيل النهائي عن العراق، رأيت أن أجرب الحياة في راوة بعيداً عن الفوضى التي تجتاح العاصمة. حاولنا ترتيب دار راوة وتوفير احتياجاته، وبعد مضي فترة ليست طويلة فوجئت بأن المدينة أصبحت هدفاً مفتوحاً أمام قوات العدوان الأمريكي. بعد أن فرضوا الحصار عليها وعملوا على تقييد حرية وحركة الناس في أنحائها. عند ذاك، لم أجد سبباً واحداً يدعوني للبقاء، واتخذت قرار الرحيل عنها.

-٣-

مرة أخرى يشقينا الزمن، فنلجأ إلى الاختيار المستحيل، مغادرة الأوطان والأهل والخلان. لا شيء في الوجود يعادل لحظة إلقاء الكلمات الأخيرة، إنها اللحظة الأكثر شقاءً. عانقت الأولاد زينب وعز الدين ونجلة. وقبّلتُ يديَّ أبي وأمي، وأنا أحاول الفرار من الحزن والبكاء. في حوالي الرابعة من عصر

---

[١] صدر قرار إقصائي عن وظيفتي بالمنطوق التالي: "بناء على تعليمات الحاكم المدني (الأمريكي) السيد بريمر تقرر إقصاء السادة السفراء التالية أسماؤهم إلخ. وكان اسمي مدرجا تحت رقم (٧) في القائمة التي صدرت في تموز ٢٠٠٣.

يوم ٢٠٠٣/٩/١٠، وبرفقة يوسف وسلام ورحيم غادرنا العراق، وصلنا حلب في وقت متأخر من ذات اليوم.

-٤-

حال وصولي مطار حلب مساء ٢٠٠٤/٩/١٢، مررنا بشقتنا على عجل، واصطحبت الجميع إلى حيث يقيم أبي وأمي، وكان لقاءً حاراً ومؤثراً فقد امتلأت العيون بالضراعة والدموع والدعاء. ها نحن نلتقي ثانية بعد سنة أو تزيد على فراق الأهل، فراق اضطررت إليه اضطراراً، بعد أن ضاع كل شئ المحبة والأوطان والخلان.

صدمني حادث تعرض أخي محمود لنوبة قلبية خرج منها بمعجزة، بعد أن قرر الطبيب لحظة وصوله المستشفى بأن حالته خطيرة للغاية، وقد حاول الجميع بمن فيهم محمود إخفاء هاذ الأمر عني، وقد ألححت عليه أن يعتني بنفسه وأن يجري حال سفره إلى بغداد عملية قسطرة بعد أن نصحه أطباء المستشفى بضرورة إجرائها.

-٥-

بعد مرور عام كامل التقيت أبي وأمي في حلب في أيلول ٢٠٠٤ قادمين من راوة بصحبة عماد ويوسف وأولادهم، ومعهم حكيم ورحيم وقد أقاموا في دار كبيرة في منطقة (قبر الأنكليز) تقع في طرف مدينة حلب.

حاولت في اللقاءات المسائية اللاحقة أن أراجع بعض الوقائع والأحداث التي أوردتها في كتاب "أيام أبي" الذي قارب على الانتهاء فحدثني مجدداً عن عمه زكريا، (ذلك العم الشفوق الذي كان جواداً فلا يضع شيئاً في فمه ما لم يطعمني أولاً، وأكاد أراه الآن وفي كل وقت إنه يشبهني).

وأعاد مرويات (المدادة) التي يصفها بالتعب المرّ. واستذكر طفولته في

درب (المحسنة) كان بيتهم قبالة دار (ركوان). ووصف أيامه الأولى بأنها تلقائية وبسيطة وجميلة أيضاً رغم الفقر والبؤس. وأعاد ذكر أخوال أمه: (ياسين، طه، ولي، حبيب، عبد الرحمن) وكيف كانت أمه بارة بعمامها، وهي تغدق عليهم الكثير من الأموال، بعد أن باعت ما ورثته عن زوجها محمود من عقار وبساتين كثيرة في الهلالية والزراشية والخريبة. يقول عز الدين:

"إن عمتي خديجة كانت تحدثني عن أبي، وبعد رحيل أمي لم يعد لي أحد في الدنيا إلا مطني وأمين وعمتي"

-٦-

سافر أبي وأمي والعائلة إلى مدينة (كسب) الواقعة على الحدود السورية التركية، وكانت هذه الزيارة واحدة من أمنيات يوسف، بعد أن اشترى بيتاً هناك بأمل أن تمضي العائلة فترة الصيف في ربوع (كسب) المعروفة بنقاوة هوائها، ومناخها المنعش في فترة الصيف، لكن أبي لم يمكث في المدينة إلا ليلة واحدة، بعد أن اشتد عليه البرد في الليل. فعاد وهو يتحدث عن جمال كسب: "رأيت مشهداً عجباً لم يسبق أن رأيت مثيلاً له في حياتي، فقد اجتمع في هذه المدينة الجبل والبحر والعشب البهيّ، وقد تملكني خوف شديد وأنا أطل من شرفة دار يوسف على الوادي الأخضر العميق، فالارتفاع الشاهق أفزعني، إنها رحلة ممتعة، الهواء العليل، وغابات الشجر الكثيفة، والعشب الذي يملأ الأرض، ولكن الطريق متعب وطويل".

-٧-

في الليلة الأخيرة وقبل أن يغادر حلب في صباح اليوم التالي قال أبي:

"أريد أن تعلم بأن أباك لم يطأ حراماً في حياته كلها، ولا أطعمك وأخوتك إلا حلالاً. وكل الذي أتمناه منك، أن تبقى لأخوتك من بعدي أخاً وأباً، وأن

تبقى أخوتكم قوية متماسكة يضرب بها المثل، وألا تنسوا بيت مطني، فأولادهم أخوة وظهير لكم وهم أهلكم. واعلم إن كل ما يتمناه الإنسان في حياته وبعد مماته هو الذكرى الطيبة، وقد عملت طوال حياتي من أجلكم، والحمد لله الذي وهبني ذرية صالحة من الأولاد والبنات والأحفاد. وأشهد الله بأنني راض عنك وعن أخوتك تمام الرضى، وأدعو لكم ولأولادكم بالهداية والتوفيق وأن تبقوا دائماً كما أنتم الآن متحابين يداً واحدة"

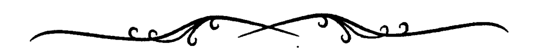
"والآن وقد التقينا بك وأمضينا هذه الأيام التي جمعت شملنا، نتمنى لك الخير"

وهكذا انقضت الليلة الأخيرة، قبلت يديّ أبي وأمي ومضيت وأنا أغالب عبراتي.

الهجرة

قال الراوي: في ٢٠٠٥/١١/١ قرر أبي أن يصطحب أمي وعائلتيّ محمود عماد ويوسف إلى خارج العراق. بعد أن أصبحت الحياة في البلاد جحيماً لا يطاق، وبعد أن تعرض أبي لمضايقات جنود الاحتلال في راوة، ثم اختطاف أحد أفراد العائلة من قبل إحدى العصابات الإجرامية، فلم يعد بوسع عز الدين إلا الانتقال إلى بلاد الشام ليقيم وولديه في ربوعها إلى حين انجلاء الموقف واستقرار الأوضاع.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع سافر عز الدين ومليكة برفقة كريم إلى (الشارقة). في رحلة اغتراب أخرى لا أحد يعلم متى تنتهي أو متى يعود المنفيون إلى أوطانهم!



الصفحة الأخيرة

قال الراوي:

من عام الحزن ٢٠٠٣ إلى عام الهجرة ٢٠٠٥ هكذا شاءت الأقدار أن يضطر عز الدين إلى مغادرة بغداد والرحيل عن الديار، والاغتراب إلى ما وراء الروح.

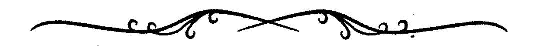
ليس هناك حزن في كل الدنيا يعادل حزن مفارقة الأوطان والبعد عن الأحبة والخلان.

فبعد أن داهمت الدار الآمنة الظلمة الظالمة السوداء في لحظة الاختيار المستحيل بين الوجود الجريح والعدم الدامي، حمل عز الدين وبرفقته مليكة الأحزان العظيمة والهموم الكبرى إلى ما وراء العراق.

هكذا شاء الاختيار المرير أن يضع أبي خطوته الموجعة في ليل الغربة الموحشة.

بعيداً عن المنازل والديار، بعد أن كادت الذئاب الغبر في الليلة السوداء تقضم قلب بنيه، الذين تناثروا بين الشام والكنانة والخليج.

فلم يعد بوسع الأب إلا أن يتحامل على أوجاعه فيلوذ بنور الضراعة والدعاء وهو يرنو إلى الأفق الأعلى، صوب الأمل الآتي من رحم الغد، حاملاً في فؤاده بغداد المتوهجة بالتقوى والعروبة والشجاعة.



المصادر

أولاً: المقابلات واللقاءات:

١- عز الدين محمود.

٢- مليكةحمادي الصالح النعمان.

٣- بدوية سليمان العسكر.

٤- عبد الكريم مطني العساف.

٥- عبد الغني حميدي الراوي.

٦- صالح حامد العسكر.

٧- صباح حامد العسكر.

٨- حمودي شلال الياسين.

٩- سامية شلال الياسين.

ثانياً: الكتب والمراجع:

١- عبد الستار عز الدين الراوي:

- فردوس الكرخ، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠١.
- قمر الكرخ (مخطوط).

٢- عبد الجبار الراوي (مذكرات عبد الجبار الراوي) مطبعة الراية، بغداد ١٩٩٤.

٣- سليمة عبد الرسول، التراث المعماري في عانة وراوة، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٨٨.

٤- حاتم القدسي، عانة مدينة الأصالة، (بدون تاريخ).

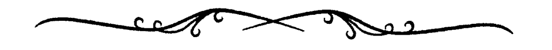
٥- عبد السلام طالب العاني، عانة، تاريخ وذكريات، القائم، الأنبار، مكتبة الأقصى.

٦- رفعت مرهون الصفار: محلات بغداد القديمة، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠٠١.

٧- عبد الكريم العلاف: بغداد القديمة، الدار العربية للموسوعات، بيروت ١٩٩٩.

٨- عباس بغدادي، بغداد في العشرينات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٩.

٩- باسم عبد الحميد حمودي، شارع الرشيد، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠٢.



فهرست موضوعات الكتاب

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢٣٨٨٠

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-315-101-x